

الطائرة الخامسة

أوراق إرهابي فاتته رحلة أفغانستان

محمد العُمَر

مــدارك

محمد العُمَر

الطائرة الخامسة

أوراق إرهابي فاتته رحلة أفغانستان

الطائرة الخامسة

أوراق إرهابي فاتته رحلة أفغانستان

محمد العُمَر

الكتاب: **الطائرة الخامسة**

أوراق إرهابي فاتته رحلة أفغانستان

المؤلف: **محمد العُمَر**

التصنيف: **رواية**

الناشر: **دار مدارك للنشر**

الطبعة الأولى: فبراير (شباط) 2013

الطبعة الثانية: مايو (أيار) 2013

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978 - 9948 - 425 - 88 - 5

طبعت في مطابع المتحدة للطباعة والنشر United Printing & Publishing



الكتاب متوفر على الإنترنت:

مكتبة ورقات

www.warqat.com





www.mdrek.com - read@mdrek.com

مجمع الذهب والألماس، شارع الشيخ زايد، بناية رقم 3، مكتب رقم 3226، دبي - الإمارات العربية المتحدة

Gold and Diamond park, Sheikh Zayed Road, Bldg 3 Office 3226, Dubai - United Arab Emirates

P.O.Box: 333577, Dubai - UAE. Tel: +971 4 380 4774 Fax: +971 4 380 5977



Madarekpublishing @mdrekpublishing www.mdrek.com Madarek PH madarekpublishing









المحتويات

إهداء

إلى امرأة تَعِبَتْ وصَبَرَتْ وتَجَلَّت أيامها بين الأرق والقهر

إلى سيدة حَبَسَت بين أضلعها أنين الألم وخوف الزمن

إلى أنثى كتمت صوتها وهي تنتظر الفرج يخرج مع الفجر

إليكِ يا من أخفيتُ عنكِ مذهبي وأظهرتُ لكِ تشدقي

أُقبِّلُ قدميّك وأطلبُ عفوَكِ لأني أخفيتُ عنكِ تطرفي 20 صيفًا

إنها أنت.. أُمي

إلى رجل خذلته في صباي وشبابي.. وندمت

إلى سيدٍ أرادني أسطورة.. فأصبحت حينها أُلعُوبَة

إلى عظيم في رؤيته للدنيا.. فلم أنهل منها

إلى حكيم رأيته يجهل شبابي وأدبرت عن بصيرته

أُقَبِّلُ جبينك لأني لم أكن كما تريد آنذاك.. ولعلي أُعَوِّضُ الآن ما فات

إليك.. أبي

أشباح المدينة.. واقعٌ أم خيال

التطرف غشاوة خطيرة لا تزيلها إلا الجرأة على الاعتدال، وبين التطرف والاعتدال مثلما بين الحياة والموت (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا).

الاعتدال في الدين الإسلامي بعيد كل البعد عما سُطِّرَ في هذه الرواية فبالاعتدال ننجو طبقًا لمنطق أرسطو: (الفضيلة تسكن بين رذيلتين)، وبالاعتدال نجَا بطل الرواية الافتراضي و بطل الرواية الحقيقي.

ثلاث سنوات سبقت منتصف التسعينيات الميلادية تخللتها تمهيدات جوهرية لستة أعوام بعدها، ففي تلك الحقبة اعتنق بطل الرواية «محمد» فكرًا متجددًا و متشتتًا ومتقلبًا، بل أقرب ما يكون إلى الهاوية.

إنه الخطأ في الاختيار والتوهان في التفكير والتوجس من التصرف.

تاه عقله وقلبه بين مفترقات طرق بدأت من على خط أبيض ناصع و سُلِكَ به في اتجاهات ملونة بين السواد القاتم والأحمر المميت المتجه نحو عتبات التنظيم.

هي قصة تُعبر عن مئات الشباب الذين غُرِّر بهم تجاه أفكار متطرفة، فهي واقع وخيال والشخصيات فيها تتراوح بين الملموس وشبه المجرد، ربما يكون بعض الأبطال «أشباحًا» تتراءى للمنعزل رغبةً في الجهاد وبعضها الآخر بلحم ودم.

فالخيال في روايتي ينحصر في أنني جمعت أحيانًا أكثر من شخص في شخصية واحدة وأكثر من مجموعة في جماعة واحدة، فلجأت إلى ذلك لكي لا يتشتت القارئ في تفاصيل متشعبة والتي أعطت صَفَحَاتها إشراقة حقيقية وواقعا حدث في نهايات القرن الماضي عن أبطال رواية غيرَّوا في مسيرة البطل الرئيس لتَصفَ الفكر الذي انغمس في المجتمع السعودي، فالرواية موجهة بشكل مركَّز إلى الأجيال الجديدة التي لا تعرف أدقّ التفاصيل الجوهرية وقد تكون غُيِّبت عن حقيقة الأحداث بطريقة أو بأخرى، كما أنها موجهة إلى الجيل المعاصر لتلك الحقبة الذي لم يتعاطَ مع أحداثها أو قد يفتقد إلى أجزاء من سيناريوهاتها.

أحداث بطل روايتي تشبه إلى حدٍ كبير سلسلة مراحل عِشْتُهَا ضمن جيلٍ من المتأثرين بالأفكار المتطرفة التي ضُخّت طوال العقدين منذ بداية الثمانينات وآتت أقسى ثمارها مع بدء الألفية الجديدة وتحديدًا بأحداث 11 (أيلول) سبتمبر.

هذه الرواية أوراق من سيرة شخص وأوراق من سيرة جيل.

محمد العُمَر

Mdalomar@

على سفح «النفود»

في أوائل الثمانينيات الميلادية انتقلت عائلة «محمد» مع الأب من مدينة «الرياض» إلى مقر عمله الجديد في مدينة «الزلفي».

ترعرع «محمد» في تلك المدينة، لكن ليس في محيطها الواسع، فأزقة الحي عليه محرمة واللعب مع أقرانه خطر وشر محض، إلا خطواته إلى المسجد يسوقها لوحده لإقامة الفروض الأربع «لأنها مباحة» وأما الفجر فمرافقة والده «واجبة».

فالخوف الذي يمتلك والده ما هو إلا احتواء لبقاء سلوك «محمد» الذي رسمه له وأن لا يؤثر الشارع على تصرفاته وأخلاقه بشكل مباشر من أطباع «الدشير»، فعمل والده حينها كـ «ضابط أمني «خشي عليه من الضياع بحكم ما يشاهد وأن بقاء «محمد» في المنزل هو الأسلم.

السنوات التي سبقت دخول «محمد» إلى الدراسة النظامية كان المنزل بالنسبة له كل شي وأما خارجه فلا يعرف سوى أبناء أقاربه الذين لا يجتمع بهم إلا في عطلة نهاية الأسبوع أو في الإجازات المدرسية ولكن ليس بشكل دائم كونهم في مدينة «الرياض» أو «المجمعة».

عندما يزورهم «محمد» برفقة عائلته يشعر بشوق للخروج إلى الشارع فيذهب مع أقرانه يلعبون ويتسكعون ويدخلون إلى «البقالة» ويبتاعون «البيبسي والبفك» وأحيانا يخرجون مع الكبار للحقل ويعودون بعد المغرب.

لكنَّ العودة إلى «الزلفي» بعد المتعة والمرح تُشعر «محمد» بضيق وامتعاض.

كان والده يأخذه برفقته إلى «العزايم» و «الكشتات» و«القنص» ففيهنَّ يتنفس «محمد» الصعداء، وكانت بالنسبة له المتعة منقطعة النظير.

في ذلك المنزل تعيش «جدة» محمد» لأبيه «لطيفة» فهي شعاع الحياة وإضاءة الأمل الذي يلف الجميع بدفئه.

العلاقة بين «محمد» وجدته «لطيفة» تشبه إلى حد كبير شعور الجدات بالأحفاد. لكن إقامة الجدة في ذلك المنزل بشكل دائم جعل لـ«محمد» منزلة خاصة في قلبها فهو الذي يؤنسها دائمًا بالحديث عن آخر الأخبار.

البيئة المحافظة في محيط «محمد» تتحسَّسُ من الأصوات العالية والمزعجة ذات النغمات الحادة، فالنسيج الاجتماعي متعلق بأُسُس الدين الإسلامي، والفطرة توَّاقة إلى المسجد والذِكر، فكان الإشهار بصوت المعازف يتم بنوع من الريبة والاستحياء.

جلوس العائلة أمام التلفاز تمرّ به لحظات محاذير في الوقت

الذي تُعرض فيه الأغاني أو المعازف فتعمد العائلة إلى خفض الصوت، فقط لأنه ليس من ديدنها إطلاق الأحكام الدينية جُزافًا على أي شي.

بقاء «محمد» في المنزل بشكل متواصل يعوضه، خروجه إلى المدرسة واللقاء بزملائه وأصدقائه هناك.

في كل صباح توقظه والدته بعد عناء، ويتجهَّز في انتظار جهوزِّية إخوته فيخرج باتجاه باب الشارع متجهًا إلى السيارة حيث يعيد السيناريو يوميًا على مسمعه صوت سيارتهم «الددسن» موديل «1990» قبل فتحه لباب السور الخارجي، فلا أجمل من استنشاق الهواء الصافي كل صباح بنقاء السماء الذي يُذَكِّرُ ببياض قلوب الناس حينها.

يفتح «محمد» باب السيارة ويركب بجانب السائق الهندي«راجندار» وينتظر إخوته، ومن ثم ينطلق«راجندار» عبر الترتيب اليومي في إيصال «محمد» وإخوته حيث يكمن دور «محمد» في الأخير لأنه«المَحْرَمُ» لذا فهو يصل متأخرًا في أغلب الأحيان حيث لا يفوته ضرب وكيل المدرسة «بالخيزران» بعد انتهاء الطابور الصباحي فغالبًا ما يكون مع «محمد» زمرة من المتأخرين:

الوكيل: ليش متأخر؟

محمد: أوصل إخواني لمدارسهم.

الوكيل: كل يوم بتتأخر كذا؟

محمد: آخر مرة أستاذ.

الوكيل: كل يوم آخر مرة؟

محمد: غصب عني.

الوكيل: المرة الثانية بوقفك في الساحة حصتين فاهم؟

محمد: إن شاء لله أستاذ

«راجندار» هو الصديق الوحيد لـ«محمد»، فرؤيته أو مرافقته تكمُنُ في أي وقت. فيذهبان سويًا لقضاء حاجيَّات «المنزل»، فبحكم انشغال والده في العمل وضع على عاتق«محمد» مَؤونة المنزل فأصبح خبير «المقاضي».

«راجندار» هو الكتاب المغلق والبئر العميق الذي يستر أفعال «محمد» فهو لا يستطيع إخبار «الوالد» لأنه يخشى غضبه أو فقدان مصدر رزقه.

ذهاب «محمد» مع «راجندار» إلى أي مشوار يتخلله تصرفات خطيرة، فعلى سبيل المثال كانت رِجلُ «محمد» اليُسرى على دوَّاسة «البنزين» ومكبح «الفرامل» ومتنقلاً بينهما هو جالس في مقعده، وأما «راجندار» فعليه التحكم بالمقوّد أو ما يسمى بالعامية «الدراكسون» وأيضًا دواسة «الكلتش» وتغيير «نمرة القير» أو مايسمى ناقل الحركة. فتلك هي المتعة لـ«محمد» وهو ما يجعله متحمسًا لقضاء حوائج المنزل.

كل شي حرام

تمرد «محمد» من قيوده واستغلّ سَفَر والده وخرج من المنزل ممتطيًا «السيكل» مقاس «16» أو ما يسمى بالدراجة الهوائية متنقلاً بين أزقّة الحي تعلوه ابتسامة شريرة وتملؤه نشوة الحرية.

خلال التسكع في الأحياء المجاورة مرَّ «محمد» بجانب منزل صديقه في المدرسة «أيوب» الذي يجلس على عتبة الباب، فدعاه «أيوب» لدخول المنزل وتجول به في أرجائه.

وجد «محمد» كل شي مختلفا، فالحياة غريبة وهدوء لم يعتد عليه رغم أن منزل عائلة «أيوب» عامر بالأهل:

محمد: أيوب «وين التلفزيون»؟؟

أيوب: حراااام.

محمد: ليش حرام؟

أيوب: لأن فيه أغاني ومسلسلات وأفلام وحريم سافرات.

سكت «محمد» لبرهة فلأول مرة يسمع تلك الأحكام على التلفاز

محمد: «إيش بعد حرام»؟

أيوب: «الصور» و«الجرايد» و«المجلات».

صُرِع عقل «محمد» بما شاهد وسمع واستأذن صديقه متعذّرًا باحتمال رجوع والده مبكرًا وأخذ «دراجته» وعاد إلى بيتهم وهو يعيد ما قاله «أيوب» بطريقة الاستهزاء «حرام» «حرام» «حرام».

دخل «محمد» إلى منزل عائلته وهو مطمئن و مستأمن لأن والده لم يعد إلا بعد ساعات من «سعسعته» في الشوارع.

سرعان ما وشت به جدته «لطيفة» التي عَلِمَت بخروجه من المنزل ولم يدرك «محمد» أنها ستفعل ذلك، فإذا بوالده يهتف باسمه وعلى نبرات صوته أزيزًا هز كيانه، فأيقن أن في الأمر وشاية ولبّى «محمد» النداء وفرائصه ترتعد، وما إن وقف أمام والده فإذا به يرمقه بنظرات يتطاير منها شرار الغضب، ورفع العقال ولسع «محمد» على مؤخرته مرارًا وتيبَّس «محمد» حتى انتهى الضرب وهو يبكي على استحياء.

وقرر والده أن يُرَحّل الدراجة إلى المزرعة.

الدراجة وعلي بابا

كان «راجندار» هو السائق و المزارع وراعي الغنم وحلاَّب البقر.

بعد ترحيل «الدراجة» إلى المزرعة أصبح والد محمد يصطحب معه ابنه بعد صلاة عصر كل يوم إلى هناك، فيمتطي «محمد» دراجته ويتجوَّل في مزرعتهم وبين المزارع المجاورة مرورًا بين «سواقي الخضار والنخيل وأحواض البرسيم.

كان اللعب في المزرعة يعطي «محمد» أكثر مساحة من الحرية وتفريغ الطاقة، ولكن قُدِّر لتلك الطاقة أن لا تخرج كلها، فذات يوم جاء «محمد» للمزرعة واستقبله «راجندار» ووجهه متقلب بالألوان:

راجندار: «مهمد»!

محمد: هلا.

راجندار: سيكل مافيه.

محمد: ليش وينه ؟

راجندار: صباح أنا «روه» «سوا سوا» غنم فوق نفود «إجي» «تلاته» نفر «علي بابا» «شيل» «سيكل».

توجّه محمد إلى والده ليخبره بما حلَّ بالدراجة فإذا برفيق والده «صافي» جالسًا:

والد محمد: وين السيكل.

محمد: انسرق.

والد محمد: من سرقه؟

محمد: يقول راجندار جو عيال الصبح وشالوه

والد محمد: وهو وين كان عنهم؟

محمد: يقول كان فوق بالنفود.

والد محمد: الأسبوع الجاي بنسافر «للكويت» ومعنا «صافي» وإذا رجعنا بشتري لك واحد جديد.

خفَّ غضب «محمد» وفرح بالسفر وجلس في المزرعة حتى المغرب متململاً ويُلوِّح للبقر والغنم بالحجر فَقَدَرُهُ أن لا يَسْعَدَ مع الحرية دومًا.

رحلة الكويت

جهَّز والد محمد جواز السفر وأضاف ابنه معه في ذات الجواز كمرافق.

عصر يوم الثلاثاء ذهب «محمد» بعائلته مع السائق «راجندار» إلى أخواله في «المجمعة» ومن ثم عاد إلى «الزلفي» مستعدًا للسفر في فجر اليوم التالي.

كان «محمد» يتخيل «الكويت» بما يشاهده خلال المسلسلات الكويتية عبر التلفاز، كما كان لديه الفضول لرؤية المرأة وهي تقود السيارة أمام عينيه حقيقة كما كان يشاهدها في تلكِ المسلسلات ليُسجّل ذلك حدثًا في أيديولوجيته الصغيرة.

ففي «الكويت» يقطن أقارب لعائلة «محمد»، فكثرة زيارة أولئك الأقارب للسعودية كان «محمد» يختلط بأبنائهم ويحكون له عن الأماكن في«الكويت» وعن جمالها الساحر ويتحدثون بذلك من باب العشق لوطنهم حيث يرون في«السعودية تركيبة يشوبها الغرابة.

مع بـزوغ الفجر أعـدَّ والـد «محمد» القهوة في انتظار « رفيقه «صافي»

بعد وصول «صافي» حزموا الأمتعة وركبوا بسيارة والد محمد «الجيب» «لاند كروزر» موديل «84» ذا اللون «البيج» وانطلقوا تجاه «الكويت».

كانت الأجواء ربيعية ومناسبة جدًا خاصة للمناطق الساحلية كـ«الكويت» فالرطوبة منعدمة.

عند المنفذ الحدودي وبعد تختيم جوازات السفر وعبور المنطقة الحدودية شَعرَ «محمد» وكأنه في عالم جديد، فعقله البسيط والصغير لا يدرك حجم الفروقات الثقافية بين المجتمعات، لكن كل ما يستطيع إدراكه هو الإحساس الذي يوحي له بانخفاض قيود تحريم كل شيء.

عند حدود منطقة «الجهراء» تطلَّع «محمد» إلى داخل السيارات يحاول لمح امرأة تقود. فمع أول امرأة شاهدها التفت إلى صديق والده «صافي» وغمز له بعينه يريد منه النظر إلى المرأة و ابتسم له «صافي».

في منزل أقاربهم أُقيمت لهم الولائم وتجوَّلوا بهم أرجاء«الكويت»والتقط الجميع صورا تذكارية ومنها تلك التي في أعلى قمة أبراج الكويت حيث لا زال «محمد» يحتفظ بتلك الصورة.

في اليومين الّذَين مكثوهما في الكويت شاهد «محمد» كل شيء، وحاول إيجاد الفروقات الاجتماعية التي توقّع أنها تختلف كثيرًا عن بلده، إلا أنه وجد كل شي يتشابه مع محيطه، إلا في بعض المُسَلّمَات

الرئيسية كحرية المرأة واحترام الحجاب وعملها مع الرجل في مكان عام وأشياء أخرى، وعاد إلى «السعودية «مُحمّلاً بتجربة جديدة من اكتشاف العالم الآخر.

غزو الكويت

بعد شهر على عودتهم من الكويت كان «محمد» وعائلته في زيارة إلى أقاربهم في «المجمعة»، وفي صباح الثاني من أغسطس العام 1990 كان عم «محمد» يستمع إلى أخبار «مونت كارلو» عبر المذياع وإذا بها تبث خبر غزو العراق للكويت.

بعد مرور الأيام والأسابيع نزح الكثير من الكويتيين إلى داخل السعودية واستقبلتهم الدولة وشعبها بكل حفاوة.

تعايش أفراد الشعبين عبر امتزاج ثقافتيهما ونتج عن ذلك أصوات عَلَت وهي تتحدث بعدم تقبلها للانفتاح الدخيل على السعوديين ما أدى إلى تصريح بعضهم أمام الكويتيين بأن ما أصابهم بسبب ذنوبهم وإعراضهم عن تطبيق الشريعة الإسلامية.

في تلك الأزمة كانت بعض العائلات الكويتية تقيم داخل المدارس والتي فتحتها الحكومة «السعودية» وعمدت إلى وقف الدراسة طيلة فترة الأزمة. أما البعض الآخر من العائلات فكانت تبحث عن مأوى تستأجره لتأوي به أطفالها وأفراد أسرتها بخصوصيتها كونها قادرة وذلك عبر طرقهم لأبواب البيوت والسؤال:

امرأة كويتية : السلام عليكم.

محمد: عليكم السلام.

امرأة كويتية : ياوليدي ما نحصل عندكم سكن أجار.

محمد: لا بيتنا كله مسكون ما فيه مكان للأجار.

امرأة كويتية : ماتعرف أحد حواليكم يأجِّر.

محمد: لا والله.

الغزو العراقي على دولة الكويت والذي اقترب من الـ 7 أشهر بدأت معه أصوات تُروّج للغزو الفكري في المنطقة وخاصة بعد تدخل القوات الأجنبية، وعلى إثرها قامت حركات دعوية إصلاحية يتقدمها مفكرون وعلماء وطلاب علم وذلك بالانتشار الأوسع رغم وجودهم قبل ذلك لكن بخطاب متجدد استدعته الأحداث الأخيرة.

أسماء بارزة على الساحة الصحوية قادت ذلك الفكر الصحوي، فقد تولى «سفر الحوالي» و «سلمان العودة» بناء الإداراكات السياسية والفكرية والعقدية، واتخذ «ناصر العمر» مسؤولية التوجيه التربوي والأخلاقي، أما «عائض القرني» و «سعيد بن مسفر» وغيرهما فنهجوا مسؤولية البناء الروحي والنفسي.

استدعت الأحداث اجتماع المئات من دعاة الصحوة وَ توقيع بيان «المطالب» والموجه للحكومة السعودية وخاصة «للملك فهد» حينها.

في يوليو 1992 قاموا بالتوقيع مرة أخرى على مذكرة

«النصيحة» ما دفع البعض من الموقِّعين بوصم النظام بالطغيان لأنه لم يستجب فاعتُقل الأبرز من المُنظِّرين ودعاة الفكر الإصلاحي. وفي إبريل 1993 أُنشئت «لجنة الدفاع عن الحقوق الشرعية في الداخل «يترأسها كلٌّ من «د.محمدالمسعري» والطبيب الجراح «سعد الفقيه»، إلا أن الاثنين تم اعتقالهما عدة أشهر، وفي العام 1994 غادرا البلاد إلى لندن لمعاودة نشاطات اللجنة من هناك ومن ثم انفصلا لاحقًا إثر خلافات بينهما.

خلال فترة الغزو انتقل أقارب عائلة «محمد» إلى «الزلفي» حيث كانوا يقطنون مدينة «الرياض» وذلك ليبتعدوا عن أجواء الصواريخ «سكود» والتي يطلقها النظام العراقي على العاصمة، فعاشت العائلة الكبيرة الذعر، في الوقت الذي يعلن فيه التلفزيون «السعودي تحذيره لسكان «المملكة» بأخذ الحذر والحيطة واتّباع تعليمات السلامة حيث كان يلقيه المذيع «سليمان العيسى».

كانت أصوات صافرات الإنذار والتي تبث عبر التلفاز تُشعر كلّ من في المنزل بالارتباك، فيجتمعون في غرفة كبيرة ويغلقون الباب، ومن ثَمَّ تُحَكم فتحته السفلى بمنشفة مبلولة بالماء خوفًا من أي تسرب كيمياوي.

كما أن النوافذ وأجهزة التكييف لها النصيب في الإغلاق والإحكام، فكانت أخت «محمد» الكبرى «هدى» تقوم بذلك عبر أكياس القمامة السوداء ولف اللاَّصق حولها.

أثناء فترة الغزو فتحت «السعودية» أبواب التطوع للمواطنين وذلك عبر المشاركة في التدريب العسكري فقط، دون المشاركة في العمليات الحربية على أرض المعركة.

التطوع العسكري

قام والد محمد بتسجيل ابنه في مركز تدريب المتطوعين وهو عبارة عن دورات عسكرية كاملة، يتخللها التدرب على فنون القتال والسلاح ويلتحق بها الكبار والصغار.

أقيم مركز التدريب في استاد نادي «مرخ» الرياضي في «الزلفي»، فبعد صلاة عصر كل يوم يذهب «محمد» برفقة السائق «راجندار» وبعد صلاة المغرب يعود إلى المنزل حيث استمر ذلك الحال شهرًا كاملاً.

مع تكرار حضوره لمركز التدريب اختلط «محمد» بالمشتركين بكل فئاتهم، ففي فترات الراحة يجلس المتطوعون على طريقة الجماعات وكان من بينهم بعض «المطاوعة» وهم من يتسمون بالتدين حيث تدور بعض الأحاديث الجانبية، فعلى شكل متكرر كان «محمد» يستمع من أولئك لبعض ما يخص أوضاع الغزو، فأحدهم يُرجِع السبب في ذلك إلى الذنوب والمعاصي والتي أودت بالأوضاع إلى المِحن، وآخر يرى أن الرجوع إلى الله والاستغفار هو الحلّ لذهاب الغُمَّة، وأنَّ ما قام به النظام العراقي عقاب من الله تعالى للكويت خاصة ودول الخليج

عامة، لذا فهو التنبيه لبلاد الحرمين، ونصح الكل بسماع شريط «فستذكرون ما أقول لكم» للشيخ «سفر الحوالي» فقام أحد الحاضرين بتوزيع ذلك الشريط على المجموعة.

في طريق العودة إلى المنزل أدخَل «محمد» الشريط وبدأ بالاستماع، لكن قُرب منزلهم من الإستاد لم يسعفه الاستماع للشريط كاملاً.

وصل إلى البيت وخلع ملابسه العسكرية وأخذ مسجله الصغير وأدخل الشريط وأكمل الاستماع:

سفر الحوالي: «نحن الآن في أول المشكلة، فلا تتصوروا أن ما حدث يمكن أن يُحَلَّ في أسبوع أو أسبوعين أو شهر أو شهرين، هذه مشكلة ستطول ونهايتها لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يمكن أن تنتهي كما قد يبدو للبعض بأيامٍ معدودات فالغرب بدأ يتكالب ويأتي من كل وجهة، بعض أساطيله إلى الآن لم تتحرك وبعضها تحرك قبل عدة أيام ويحتاج إلى شهرين في البحر حتى يصل،ثم بعد الشهرين وبعد الوصول، ماذا سيكون؟!

«أمتنا في وقت الشدة لا تلجأ إلى الله ولا تتوب ولا تستغفر ولا تتضرع وإنّمَا تلجأ إلى الكفار وتجعل ثقتها بالكفار وفي كل مجلس تقريبًا يقول الناس «ما دام أمريكا موجودة فلا مشكلة» ولا أحد يقول «ما دام الله معنا» هل إلى هذا الحد وصل بنا الأمر من ضعف العقيدة.

حديث «سفر الحوالي» تسلل عبر مسامع «محمد» كالكلام

الغريب، فالعبارات والأسلوب تعدت إدراكه وانتابه شيء من الخوف والقليل من التطفل.

لم يكن «محمد» يتعاطى مع تلك الأشرطة بشكل مباشر، فلحظات ركوبه مع والده في السيارة كان والده يستمع إلى للقارئ «محمد المحيسني» ومرات محاضرات «عايض القرني» وأحيانًا قراءة «علي جابر».

فمن باب التطفل وحب الاستماع كان «محمد» يأخذ أشرطة «عايض القرني» من سيارة والده وينصت لها في غرفته، فغدا «القرني» يُسَوّق بالاستماع إلى مشايخ آخرين كـ«سعيد بن مسفر» و«سلمان العودة» وأصبح «محمد» يجلب تلك الأشرطة عبر ذهابه مع السائق «راجندار» إلى التسجيلات الإسلامية ويبتاع لأولئك، حتى اجتمعت لديه مكتبة صوتية تفوق الـ 300 شريط.

رغم أن الخطابات الموجهة من قِبَل «سلمان العودة» تُعتبرُ قويّة وحادَّة إلا أنَّ «محمد» يحاول فهمها والتعاطي معها، لكنه في الوقت ذاته أُعجِب بأسلوب «سعيد بن مسفر» الذي يأخذ الطابع الأخفَّ والسلس في الخطاب الممزوج بالفكاهة.

كما أن لأسلوب «عائض القرني» طريقة ذكيه في الاستطرادات والقصص المُطعَمة بالإيمانيات وتربية النفس.

أولئك المشايخ ينهجون التسويق لبعضهم عبر تلك المحاضرات وينصحون طلابهم بالاستماع إلى «فلان وعلان» ويثنون عليهم،

فحينما يستمع «محمد» ثناء «سلمان العودة» على شريط معين لـ«ناصر العمر» يذهب ويقتنيه، كما كان «العودة» يثني دائمًا على رفيق دربه «عبدالوهاب الطريري» فيجلب «محمد» تلك الخُطب.

بعد تحرير الكويت في 26 فبراير 1991 لم تكن الأمة الإسلامية في مأمن من أعدائها كما يسوّق لذلك رجال الصحوة، فَعَلَت أصواتُ المنابر بأحداث البوسنة والهرسك الوحشية والمريعة.

البوسنة والهرسك

مرحلة «حرب الصرب» على المسلمين في «البوسنة والهرسك» أخذت أَوَجَها، حيث كان المسلمون يتلقون الأخبار بشكل سريع ومتواصل عن تلك الأعمال الوحشية التي تُنَفَّذُ في حق الأبرياء العُزَّل.

تلك الأحداث عبارة عن عملية نزاع دولي مسلّح بدأت في مارس 1992 وحتّى نوفمبر 1995 ودخلت دول كثيرة كأطراف في تلك الحرب.

ساعدت تلك القضية على استمرار دعاة الصحوة وطلاب العلم بتأليب المجتمع السعودي على حكومته، فالبعض منهم يدعو إلى وجوب الجهاد، والآخر يقوم بجمع التبرعات، بينما آخرون يُحمِّلونَ الدولة تقاعسها عن إنقاذ المسلمين والتحرك في حل المشكلة بالطريقة الإسلامية لا الدبلوماسية المراوغة الكاذبة.

كان «محمد» يستمع عن تلك الأحداث عبر خطب منابر الجمعة في مدينته، وكذلك عن طريق الأشرطة الإسلامية والتي تتحدَّث عن أبشع القصص في حق المسلمين هناك من دُك بالمدافع والقنابل والاغتصاب والتشريد والقتل.

ذات مرة وجد « محمد » تحت باب منزلهم منشورات طُبع عليها صور المذابح والدمار هناك، وذات مره أحضر له صديقه «أيوب» شريط فيديو يُظهر حجم معاناة السكّان، فقد كانت تلك الأشرطة توزَّع بين عامة الناس والتي جاءت عن طريق التسريب من بعض المجاهدين وصولاً إلى دعاة الصحوة.

قضية «البوسنة والهرسك» كانت إحدى الهموم التي يستعطف بها أولئك الدعاة قلوب العامة، ففي خُطبة الجمعة سمع «محمد» ذلك الخطيب وهو يصرخ بصوته العالي ويشحذ الهمم للمشاركة في الجهاد ونصرة المسلمين بالمال والنفس.

خلال تلك الأحداث توفّيت جدة «محمد» «لطيفة» التي كان يخبرها بما يقرأ ويسمع عن أخبار «البوسنة والهرسك»، حيث كانت تضجر مما تسمع، فلا تترك وقت إجابة للدعاء إلا وترفع يديها بأن يُخَلّص الأمة من البلاء والمحن والشر المُبَطَّن.

كانت الوفاة صدمة عظيمة لـ«محمد» وأثرَّ ذلك في نفسه كثيرًا، فقد كانت جدته شمعة المنزل، فهي لا تفارق سجادة صلاتها وقراءة القرآن الذي تختمه كل أسبوع، ناهيك عن صومها ليومي الاثنين والخميس وأيام البيض.

كما لا ينسى «محمد» برّ والدته بها وخدمتها والسعي خلف راحتها والتي كانت تستيقظ قبل صلاة الفجر لتحضَّر لها القهوة والسحور أثناء نيتها للصيام.

كانت الجدة «لطيفة» تحب «محمد» حبًّا جمًّا، وتتمنى حينها أن يكبر بسرعة أمام عينها وتراه رجلاً يملأ ناظريها.

بقي «محمد» قرابة الشهر وهو لا يقف عن البكاء كلما تذكَّرَ الجدة، فموتها بالنسبة له ألم، فهي القريبة لقلبه.

فتح «محمد» مصحفها فرآها متوقفة على سورة «آل عمران» وقرر أن يكمل القراءة ويختمه ليهدي الأجر إلى روحها، كما فتح خِزانتها ووجد قميصها الذي ترتديه دومًا فقلّبه بين يديه واشتمّ رَائحة جدته عالقة بين خيوط ذاك القميص، فلم يتمالك نفسه وبكى ثم قرر الاحتفاظ به.

انتقل «محمد» إلى غرفتها لينام على سريرها ويستخدم خزانتها ويحتفظ بثلاجتها، واستقر في تلك الغرفة عدة أعوام إلى أن انتقلت العائلة إلى منزل آخر جديد.

المنزل الجديد

انتقلت عائلة «محمد» من ذلك المنزل الذي مكثوا فيه أكثر من 15 عامًا إلى آخر جديد في حي قريب، فالخروج من القديم لم يكن بالسهل الممكن على «محمد»، فقد كان الانتقال كاقتلاع الروح من الجسد، فذكريات الطفولة تحكيه كل زاوية منه وكذلك اللحظات الجميلة مع جدته.

بات كل شي من حوله غريبا، فلم يعتد على الكيان المختلف بعد الانتقال، ففي حيهم القديم لا تزعج تلك الأصوات المنبعثة من السيارات المارَّة أمام المنزل الجديد وبشكل متواصل، بعكس المنزل القديم الهادئ الذي لا يقع على شارع عام، حيث كانت أصوات السيارات معروفة ومألوفة.

فعندما يسمع صوت «تفتفة» فهي «هايلوكس» «أبو فراج» الـ «83».

وأما «القربعة» فهو «جيب» «أبو دخيل».

لكن «حنحنة» «المستوبيشي» فهي سيارة «أبو حسين».

وحتى آذان المسجد الذي يَبعُد 100 متر يَشعُر معه بالغربة وكأنه انتقل إلى مدينة أخرى.

في هذا المنزل وجد «محمد» في نفسه تحولات غريبة متناقضة، وبدأ فيه بالنضوج وكثرة القراءة عبر مكتبة والده التي تحوي العديد من الكتب المتنوعة في الدين والتاريخ والسِّيَر، فمرات يجد نفسه بين أشرطته الدينية وكأنه بفكر أصحابها، ومرات بين التلفاز ومحتواه، وأحيانًا لا يفكر البتّة في الالتزام الجوهري ولم يتخيل نفسه به مطلقًا، والأغلب أنه متأثر بالطابع المحافظ.

الغزو السروري

قَدِمَ من «سوريا» إلى «السعودية» «محمد سرور زين العابدين» الذي نشأ إخوانيًا وتربى في جماعة الإخوان المسلمين بعد حل الجماعة في العام1969 أي بعد مضايقات النظام السوري، حيث كان في انتقاله إلى «السعودية» تطعيم فكره الإخواني بالسلفية وبدأ ببث منهجه الجديد عبر بعض طلاب العلم في «السعودية» الذين نشأوا من رحم التزاوج «القطبي» بالسلفية، وتشجيعه لهم على المعارضة والجهاد والذهاب إلى أفغانستان.

انتقاله إلى «السعودية» كان مباشرة إلى مدينة «بريدة» في منطقة القصيم شمال «الرياض» حيث يقطنها مشايخ السلفية وأصبح فيها مُدَرِّسًا في المعهد العلمي، وكان من أبرز من تتلمذ على يديه في تلك الفترة الشيخ «سلمان العودة».

كان لـ«محمد سرور» لقاءات ومحاضرات واختلاط بالمشايخ وطلبة العلم والمثقفين والمحامين وبشكل مكثف، وكانت تلك الاجتماعات تُرسِّخ المنهج الجديد لدى أولئك عبر أيديولوجيتهم بمفهوم التعبير عن الرأي والانتقاد والاعتراض على الدولة، فنشأت

ما تسمى بالصحوة الإسلامية، وتفشت في المجتمع السعودي، حيث كانت تحمل أهدافًا تسعى إلى تحقيقها وآليات سهّلت انتشارها عبر رموزٍ نظَّروا لها فيما بعد حتى عُرِفَت تلك الحركة بـ«السرورية» نسبة إلى «محمد سرور» واتُّهِم أنه من عقد القران بين الوهابية والقطبية.

تجلَّت رؤية «محمد سرور» من خلال مجلته «السنة» التي كانت تصدر من «لندن» وكان «سلمان العودة» من أبرز كُتّابها والذي يختفي وراء إسم مستعار لطرح بعض اطروحاته التي لا يستطيع أن يبثها علانية لسبب وآخر.

بعد شهور من إقامة عائلة «محمد» في المنزل الجديد، أدرك والده أن في الخروج من السور المُحصن خيارا مُحتَّمًا، وأن يصبح لـ«محمد أصدقاء يتواصل معهم»، ولكن خيار نوع الأصدقاء ليس بيد «محمد» فهو أمر محسوم لدى والده فإما مع «الدشير» أو على طريق «البشير النذير».

في ذلك الحين كانت المراكز الصيفية في أوجِها، فحاول والده أن يخرجه من عزلته التي فرضها عليه وأن يختلط بالعالم الخارجي لكن على الطريقة التي يريدها.

كانت المراكز الصيفية في تلك الفترة والتي تقام في مدارس «المعاهد العلمية» التابعة لـ«جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية» والتي يشرف عليها «الصحويون» بشكل مباشر وحتى رواد الأنشطة ومشرفو الشُعب.

تلك المراكز تعتمد «التفريخ» الذي يستهدف الشباب في أعمار المراهقة في وجذبهم بوسائل ترفيهية وفكاهية إلى جانب النصح الذي ينحني إلى طريقة الإملاء لا النقاش.

فما كان من بُدٍّ إلا أن يقرر والد محمد تسجيل ابنه في تلك المراكز الصيفية لأنه يعتبر قراره هو الخيار الأسلم.

التحول السروري

ترجَّل «محمد» ووالده من السيارة وتوجها إلى إدارة التسجيل وكان هناك مدير المركز «عمَّار»

أبو محمد: السلام عليكم.

عمَّار: عليكم السلام هلا والله أبو محمد.

أبو محمد: هذا ولدي محمد.

عمَّار: والنِّعم.

أبو محمد: كيف المركز عندكم.

عمَّار: يبدأ بعد صلاة العصر لين بعد صلاة العشاء من السبت إلى الأربعاء فيه دروس خفيفة وحلقات قرآن ونشاطات رياضية.

أبو محمد: زين زين أجل بنسجل الولد.

عمَّار: هذي الساعة المباركة.

أبو محمد: يبدأ اليوم ؟

عمَّار: نعم.. خل «محمد» عندنا ولو تبي يرجعه للبيت أحد من الشباب الخيرين.

أبو محمد: لا عندي سواق يجي يأخذه عقب العشاء.

عمَّار: وهو كذلك.

خرج والد «محمد» وجلس ابنه في مكتب «عمَّار» ودخل شاب «ملتزم» اسمه «سيف»:

عمَّار: هذا «محمد» ولد الضابط «إبراهيم».

سيف: ما شاء الله.

عمَّار: سجّله في شعبة «أبو بكر الصديق» عند المشرف «مصعب» وحرّصه على «محمد»، أما أنت يا محمد أي شي تحتاجه تعال لي.

محمد: إن شاء الله.

ذهب «محمد» برفقة «سيف» إلى الشعبة وعند بابها خلع حذائه ومن ثم دخل وألقى تحية الإسلام على المتواجدين وجلس حيثما يقعد آخر منتمي للشعبة قبله.

بدأت الجلسة بطريقة التعارف على الأسماء ابتداء من اليمين، وكل طالب يأتيه الدور يقوم المشرف «مصعب» بطرح عدة أسئلة وهي لمجرد العلم بالشيء وكذلك جمع الكثير من المعلومات:

وين تسكن؟

وين تدرس وفي أي صف؟

تدرس في حلقة قرآن؟

يقرب لك فلان؟ (لتشابه اسم العائلة).

لك أصدقاء؟

بعد ذلك التعارف بدأ «مصعب» بالحديث عن الفوائد من تلك

المراكز الصيفية وأنّ الالتحاق بها أفضل من الالتهاء بالكماليات الدنيوية كالسفر أو مرافقة أهل الفساد والضياع بين الأرصفة وأزقة الحي.

في آخر ساعة من العصر جاء وقت الوجبة الخفيفة وَطَرَقَ البابَ أحدُ القائمين على شؤون التغذية ، وأدخل صندوق «البيبسي» وأيضًا صندوق بسكويت «ديمة».

في الوقت المستقطع لأكل الوجبة بدأ كل طالب يتعرف باستحياء على من بجانبه وهي لحظة اختيار الأصحاب، فالبعض يختار حسب ميول العقل والفكر والأخر حسب الشكل «وإنما الاختيار بالنيات».

بعد الوجبة انتهت الفترة الأولى وذهب الجميع إلى ساحة المعهد، وهناك بدأ الطلاب باختيار ميولهم، فمنهم من اتجه للعب كرة القدم والبعض إلى كرة المضرب بينما يجلس البعض الآخر ليشاهد فقط.

طلب «مصعب» من «محمد» أن ينضمّ إلى مجموعة المشرفين الجالسين أمام ملعب كرة القدم، وأثناء الجلسة طُرحت على «محمد» عدة أسئلة «فاستلموه أيما استلام»:

مصعب لك أصدقاء؟

محمد: لا أغلب الوقت في البيت.

مصعب: من المشايخ اللي تسمع لمحاضراتهم عبر الأشرطة؟

محمد: «عايض القرني» و«سلمان العودة» و«سعيد مسفر» و«عبدالوهاب الطريري».

مصعب: أووووه ما شاء الله ومن يجيبهم لك؟

محمد: أروح مع السواق للتسجيلات.

مصعب: الوالد وش يسمع ؟

محمد: أشرطة عايض القرني كثير.

مصعب: ما شاء الله «زين» تروح للمحاضرات في المساجد؟

محمد: لا.

مصعب: عندكم في البيت مكتبة؟

محمد: عندنا مكتبة للوالد.

مصعب: وش نوع الكتب؟

محمد: أغلبها دينية وسيَر.

مصعب: مثل إيش الدينية؟

محمد: في ظلال القران».

مصعب: أبوك يقرأ لسيد قطب؟

محمد: إيه.

مصعب: شي جميل يعني أبوك «ثوري»؟

محمد: شلون ثوري؟

مصعب: ولا شي بس قصدي إن فِكره مستنير.

عَلِقَت «ثوري» في ذهن «محمد» وذهب يسأل في نفسه لماذا هذا الكمّ من التحري ولأي شيء؟

لاحِقًا عَلِمَ «محمد» أن المعلومات التي اكتسبوها عنه وعن والده

مفيدة لهم وتصب في صالحهم وتأكدوا أن خلفية توجه والده البسيطة التي تَنُمُّ عن الفطرة ستساعد على استغلال «محمد» في عدة جوانب ستتأصل به فيما بعد.

تلك المراكز الصيفية تعتمد في تجنيدها استحداث رحلات خارج أسوار المعهد العلمي، فبعد ثلاثة أسابيع من انضمام «محمد» وفي يوم الأربعاء طلب منه «مصعب» الالتحاق معهم عبر الرحلات الخاصة خارج المركز في كل يوم خميس من كل أسبوع، فأخبره «محمد» أنه سيستأذن والده.

يعتمد القائمون على المراكز الصيفية «طابع الانتقائية» فبعد الانتهاء من موسم المركز يخرجون بعدد لا بأس به من الطلاب بأعمار تتراوح مابين 15 و 20 سنة لينضموا إلى منظومةٍ تسمى بالمكتبات.

بعد صلاة العشاء وهو الوقت الذي ينتهي فيه المركز الصيفي كان «راجندار» ينتظر مقابل بوابة المركز حيث ركب «محمد» واتجه إلى المنزل، وأثناء ذلك كان «محمد» متوترًا يسأل نفسه: «هل سأستطيع إخبار والدي عن تلك الرحلة أم لا؟ وماذا سأقول؟ وكيف سأشرح؟ وهل سيوافق على ذهابي أم لا؟».

وصل «محمد» إلى البيت ولم يتسنَّ له الفرصة لمقابلة والده فتوجَّه إلى غرفته وبقي مع أشرطته وكتبه ومن ثم استسلم للنوم مباشرة.

استيقظ فجرًا وذهب للمسجد وبعد الصلاة خرج خلف والده

وسارَ بجانبه محاولاً مفاتحته بالموضوع، لكنّه لم يستطع رغم مع محاولته فالحروف وقفت على طرف شفتيه.

دخل «محمد» إلى المنزل وهو يشعر بضيق ومن ثم صعد إلى غرفته وكان يرقب عبر النافذة مجيء «مصعب» من أمام المنزل ونفسه كانت توّاقة للذهاب.

اقترب «مصعب» من المنزل وبرفقته بعض الطلاب وكبس على «بوق» السيارة في محاولة منه لجس «النبض» ووقف أمام باب المنزل لبرهة من الوقت، وكان «محمد» متردداً في النزول إلى «مصعب» والاعتذار منه بأي طريقة حتى وإن استدعى الأمر للكذب بقول أن والده رفض، أو أن يقول الحقيقة.

في الأخير استسلم «محمد» وبقي في غرفته ولم يجرؤ على النزول حتى لا يُشعِر «مصعب» بشيء من التوجس وذهب يوما الخميس والجمعة عليه بالحسرة.

في يوم السبت كان التوتر يلوف «محمد» ويحدِّث نفسه: «ماذا سأقول لـ«مصعب» وهل قد يستبعدني من الخروج مرة أخرى ؟!!

قبل أن يدخل «محمد» إلى الشعبة سمع صوت «مصعب» من خلفه وهو يتحدث لأحد الطلبة، وعند باب الشعبة أمسك «مصعب» بيد «محمد» وهمس في أذنه:

مصعب: عسى ما شر؟ وينك الخميس؟

محمد: أخذني النوم وما صليت الفجر.

مصعب: يعني أبوك وافق؟

محمد: إيه.

اضطَّر «محمد» للكذب على «مصعب» وهو يقول في قرارة نفسه:

أنا مصمم على الانضمام ومفاتحة والدي بالموضوع.

الخميس المرتقب

بعد مُضيّ عدة أيام قرر «محمد» مفاتحة والده حيث اعتبر ذلك يومَ الحسم وقرر بلا هوادة الانضمام إلى رحلات الشعبة.

بعد صلاة فجر الثلاثاء وفي طريق العودة إلى المنزل تردد «محمد» مجددًا في مفاتحة والده ولسانه يزاحم فكّيه يريد الانطلاق.

محمد: يبه.

أبو محمد: هلا.

محمد: المركز الصيفي كل بين فترة وفترة يسوون رحلة و..

أبو محمد: وين يروحون؟

محمد: مزرعة لأحد المشرفين.

أبو محمد: وش يسوون ؟

محمد: يطلعون من بعد الفجر وفيه درس قرآن ونشاط رياضي و..

أبو محمد: إلى متى ؟

محمد: إلى آخر العصر.

أبو محمد: من بيروح معكم ؟

محمد: فيه «مصعب» اللي هو المشرف علينا وفيه «عمار».

أبو محمد: دام «عمار» معكم «زين رح».

في الحقيقة لم يكن «محمد» على علم بذهاب «عمار» للرحلة، لكنه ذكر ذلك لبثِّ روح الطمأنينة في قلب والده ويسمح له بالذهاب.

في يوم الأربعاء كلَّف «مصعب» «محمد» بجلب القهوة من المنزل وإحضار 50 ريال «للقطة» وهي صندوق مصاريف الرحلة، كما طلب «مصعب» من الجميع إحضار مصحف صغير وقلم وكراس ملاحظات.

فجر الخميس استعد «محمد» للذهاب ووقف عند باب الشارع ينتظر «مصعب» فإذا بـ«سعدون» ابن الحي والعضو في شعبة «أبو بكر الصديق» يمر بجانبه وهو يجرُّ خطاه فاتحًا أزارير ثوبه وسيجارته بيده و هو متحنّك بشماغه.

سعدون: الحين وراهم مختارينك وأنا لا؟

محمد: مختاريني في وشو؟

سعدون: أنك تروح معهم للرحلة ؟

محمد: ما قالك «مصعب»؟

سعدون: لا و لا فتح فمه.

محمد: وليش ماقلت أبي أروح معكم؟

سعدون: إلا هُمّ ليش يختارون اللي يبون واللي مايبون موكّلينهم تبن؟

محمد: يمكن عشانك ترادهم في الشعبة وتستلكع عليهم !!

سعدون: بس ولو يعني السالفة اختيار على المزاج.

فتح «سعدون» إشكالاً جديدًا في رأس «محمد» وبالفعل بدأ يتساءل !!

لماذا أنا وليس «سعدون» ولماذا لم يكن «سعدون» ضمن الرحلة؟

أيقن «محمد» لاحقًا أن تلك المراكز الصيفية تختار بعناية من تتنبأ بفائدته المرجوَّة لخدمة رسالة التيار الصحوي، حيث من الصعب اختراق تلك المنظومة، فهم يختارون من يرون فيه سمات الالتزام والضوابط المحددة لأن تلك المراكز الصيفية تخدم ذلك التيار.

أشرقت السماء بنورها، وقُبَيل استيقاظ الشمس وصل «مصعب» ومعه 3 من طلاب الشعبة وركب «محمد» سيارة «مصعب» الهايلوكس موديل الـ «88»وصوت المنشد «يصدح» :

سنخوض معاركنا معهم

وسنمضي جموعًا نردعهم

ونعيد الحق المغتصب

وبكل القوة ندفعهم

بسلاح الحق البتار

سنحرر أرض الأحرار

ونعيد الطُّهر إلى القدس

من بعد الذُّل وذا العار

وسنمضي ندك معاقلهم

بدويٍ دامٍ يقلقهم
وسنمحو العار بأيدينا
وبكل القوة نردعهم
في نجوم الكون نحن
نقطن السامي المكين
لن نرضى بجزء محتلّ
لن نترك شرًا للذلّ
ستَمور الأرض وتحرقهم
في الأرض براكين تغلي.

ثم قلَب «مصعب» الشريط على الأنشودة الأخرى:

لليالي السود صرنا
مبعث النور المبين
شاهد الإيمان فينا
غُرة فوق الجبين
نحن للهدْيِ جنود
قد صففنا طائعين
اسأل التاريخ عنا
كم دخلنا دارعين
نحمل الشوق فتيًا
سيجيب المسلمين

عن أسُود العز سائل

وجدود الصالحين

عن شهيد الدين يُدمى

ريحه المسك الثمين

مصعب: ياشباب تعرفون من هو المنشد

محمد: لا من يكون ؟

مصعب: هذا أبو عبدالملك.

محمد: سمعته قبل بالصدفة.

مصعب: وش تسمع أجل؟

محمد: أناشيد الشباب الكويتي.

كانت الأناشيد الجهادية في حقبة الثمانينات والتسعينات الميلادية تعزز في ظاهرها مفهوم الغيرة على الإسلام والمسلمين وخاصة المستضعفين والممتحنين في بلدانهم، وفي باطنها باب آخر لخلق شباب جهادي مُتغيِّر ومُغيِّر، ومن رسائلها التلْيين والتحريض ولفت الانتباه إلى الجهاد وأهله، فأبياتها تُخَطُّ بأقلام أولئك المجاهدين في الخارج كأفغانستان والشيشان والقوقاز والبعض منها من قبل المُنَظّرين والمتعاطفين أمثال الشاعر «عبدالرحمن العشماوي» وهي أيضًا بتوجيه وترتيب ومساندة من الطرفين، فكانت القضية الفلسطينية هي الشمّاعة للوصول إلى الأهداف والتي يأتي في مقدمتها التجنيد الروحي حيث تربّى عليها شباب ذلك الجيل.

وصل «مصعب» ومن معه إلى مقر الرحلة في مزرعة خارج المدينة ولاحظ «محمد» أن عدد السيارات كبير.

ترجل من السيارة وشاهد على مدّ بصره مساحات النخيل وشجر«الأثل» وعلى يمينه أشبه بالبيت الشعبي وعلى ميسرته مبنى مرتفع مظلَّل عِبَارة عن حوض سباحة.

دخل الجميع إلى المنزل وأقبلوا على الغرفة الكبيرة فإذا بـ«محمد» يلمح كل مشرفي الشُّعب في المركز الصيفي وعلى رأسهم «عمَّار»، ولفت انتباهه اختيار طلاب الشُّعب الذي تم بعناية حيث يصل عددهم الـ 30 طالبًا ولم يُشاهد بينهم من على شاكلة ابن الحي «سعدون».

عمَّار: مرحبا ياشباب، البعض منكم لأول مرة يحضر، وليس من بيننا كل طلاب المركز، فاخترناكم لأن «سيماكم في وجوهكم» من الخير والصلاح وأنتم من يعقد عليه الآمال في المستقبل كقدوة لأهلكم ومجتمعكم، فقد نشاهد منكم في المستقبل دعاة ومشايخ وقضاة، لذا أتمنى منكم الالتزام بالحضور والتفاعل مع المشرفين، والأهم التكتم على ما نقوم به في هذه الرحلات وأن لا نكثر الحديث به أمام من لم يحضر.

خطاب «عمَّار» أمام الطلاب كان واضحًا وجليًا حيث يُقصد منه التكتم التام للأقوال والأعمال التي تُنفَّذ داخل تلك التجمعات ليس عن طلاب المركز الآخرين فقط بل حتى أمام الأهل والأصدقاء أيضا.

سرد «عمَّار» في حديثة بعض المسائل الأخرى المتعلقة بالفكر والعقل والمنهج والتي كان «محمد» وبعض من معه يجهلون مقصدها في حينه، وهي نوع من أشكال تطوير الفكر الحركي.

عمَّار: ياشباب لم نخلق من أجل الصلاة وقراءة القرآن والصيام والحج والصدقة فقط، بل إن الأهم أيضًا تحصين النفس والفكر من الفتن التي تتجلى بين الوقت والآخر نسأل الله السلامة منها، لأجل ذلك لابدَّ من الالتفاف حول بعض المشايخ الذين كانت لهم تجربة قريبة في واقع الأمة المعاصر، كما عليكم بسماع أشرطتهم النافعة التي توَعّيكم وترشدكم كأمثال الشيخ«أحمد القطان»و«سلمان العودة»و«عائض القرني» ففيها الخير الكثير والنفع العميم وتجعل عقولكم مستنيرة ومحصنة من سموم الأفكار التي تُراد بأُمتكم والتي يقوم بها للأسف أبناء جلدتكم.

مصعب: قولوا إن شاء الله ياشباب!

فقال الجميع بصوت عالي «إن شاء الله» وكأنها مبايعه مُبَطنة».

طلب «مصعب» من الجميع إخراج المصاحف وبدأ «عمّار» بقراءة آيات من أول سورة التوبة» حيث كانت القراءة من الجميع بشكل متتالي إلى أن أتمَّ الجميع السورة.

بعد قراءة القرآن انطلق «عمَّار» بقراءة تفسير ابن كثير حول بعض آيات سورة التوبة.

طلب «عمَّار» من المشرفين تشكيل شُعَب جديدة متعلِّقة بالرحلة فقط وتكليفها بمهام منفردة:

الأولى: تُعدُّ البرنامج الثقافي.

الثانية: تُجَهِّز وجبة الإفطار.

الثالثة: تُحَضِّر الذبيحة لوجبة الغداء.

وأمر «مصعب» أحد الشباب بجمع مبالغ صندوق الرحلة.

اجتمعت كل شُعبة على حِدة وبدأ الجميع بشرب القهوة وتبادل الأحاديث الجانبية والضحك، ففي مثل تلك الاجتماعات يحرص القائمون عليها أن يكون بين أفرادها أشخاص «فُكاهيون» ليُلَطِّفوا الأجواء ويكون المُحبب الجاذب لمثل تلك الرحلات.

أثناء شرب القهوة التفت «مصعب» نحو «محمد»:

مصعب: مكتبة أبوك فيها كتاب «معالم في الطريق» لسيد قطب؟

محمد: أعتقد.

مصعب: تأكد وأعلمني.

محمد أبشر بس ليش؟

مصعب: الكتاب رائع يربطك بالقرآن وجيل الصحابة ويعالج أهم قضايا العصر.

لاحقًا عرف «محمد» بأن ذلك الكتاب كان يُنْصَح بقراءته في أغلب التجمعات الشبيهة بحال مكتبته في تلك المرحلة.

بعد ساعة من شرب القهوة وتبادل أطراف الحديث جاءت الشعبة الثانية بإشراف «علي» بمائدة الإفطار وهو عبارة عن «فول» و«شكشوكة» و«معلبات» و«شاي».

وعند الساعة الـ 11 أي قبيل الظهر:

عمَّار: ما رأيكم يا شباب نتجدد بالوضوء ونصلي ركعتي الضحى فإنها صلاة الأوابين.

أجاب الشباب النداء وتوجه كل شاب في جهة من الغرفة ليؤدي الركعتين ومن ثم أمر «عمّار» كل الشباب بالمحافظة على الركعتين دومًا وأن لا يتخلَّوا عنها أمد الدهر.

قام مشرف الشعبة الأولى «عروة» وطلب من الشباب الالتفاف حوله:

عُروَه: ياشباب الآن سنستمع إلى خطبة الشيخ «أحمد القطان» والتي بعنوان «مسلسل تدمير الأخلاق» وبعدها سأطلب منكم الفوائد المستخلصة.

بدأ الشريط بقراءة آية من سورة النساء بصوت «أحمد القطان»(وَاللّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الّذِينَ يَتّبِعُونَ الشّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيما).

كانت خطبة «القطان» تتحدث عن الشهوات وتفصيل دقيق في هذا الشأن ويستطرد بعبارات سطحية تلك الأمثال عن أفخاذ النساء والجنس وبأدق تفاصيلها.

وفي ثنايا الشريط:

(عمر بن الخطاب رضي الله عنه جيءَ له بمغنٍّ يعزف على دف فقط، والرسول صلى الله عليه وسلم أذن للصبايا الصغار في العيد في

العزف على الدف فماذا فعل عمر بالمغني ؟! أخذ الدف وكسره على رأسه، هو أمسكه بيده وهو الخليفة الراشد مارس إنكار المنكر بيده وهو الحاكم وخلافته تمتد من المدينة إلى أقصى العراق وإيران وإلى أقصى الشام ومصر وإلى أقصى الجزيرة والحجاز واليمن، ما منعه من أن يُنكر المنكر بنفسه ولم يجعل له حواجب وحُجاب يحجزون بين هذا وهذه لأنها عبادة).

شدَّ «محمد» هذا القول الذي يُظهِّر في طياته الواجب على الحاكم، وأن حُكام هذا الزمن لا ينهجون الأخذ بِهَمِّ الأمَة ومطالبها.

عُروَة: ياشباب سنبدأ باليمين وكل فرد يعطينا استنباطه من الخطبة.

تحمس الشباب في تدوين الفوائد أثناء الاستماع، فهناك من قال «غض البصر» وآخر «هم الدعوة «وغيره ذكر «تجنب مواطن الفتن» ومنهم من استنبط «محاربة القنوات الفضائية».

عُروَة: تفضل يا محمد جاء دورك.

محمد: أنا أبغى اسأل.

عُروَه: مو وقت سؤال فقط الفوائد.

محمد: ليش؟

عُروَه: النقاش بعدين.

أكمل «عُروَه» الدور إلى الذي بعد «محمد» لكن أحد الشباب استفاد من موقف «محمد «وبدأ بالسؤال من دون الاستئذان:

الشاب: ليش أحمد القطان ومو سعيد بن مسفر مثلاً؟

عُروَة: مو قلنا فوائد بس ؟

الشاب: أبي جواب !

عُروَة: قلنا النقاش بعدين.

عمَّار: أنا أعلمك.. الشيخ «سعيد بن مسفر» يستطرد كثيرًا ويميل إلى الطرفة ونحن نريد أن نستفيد من قضايا بارزة.

محمد: أنا عندي سؤال مهم.

عمّار: اسأل.

محمد: إيش يقصد الشيخ «أحمد القطان» عندما ذكر قصة عمر بن الخطاب وصاحب الدف؟

عمّار: ههههههه خلينا نكمَّل فوائد الشباب وراح أتحدث معك بعد هذه الجلسة.

شَعر «محمد» أن هناك تهربًا من الإجابة فـ«عمّار» يرى أنه من المُبكر الخوض في مثل تلك المسائل وقد يفتح أبوابًا تعيق الرسالة المرجوَّة فكان يحاول أن يتجنَّب «محمد» حتى لا يجيب على السؤال.

محمد: «عمَّار».

عمّار: سم.

محمد: سم الله عدوك ممكن أسأل ؟

عمّار: تفضل.

محمد: الشيخ «أحمد القطان» ذكر قصة «عمر بن الخطاب» وصاحب الدف وبعدها قال «ما منعه من أن يُنكر المنكر بنفسه ولم يجعل له حواجب وحُجاب يحجزون بين هذا وهذه».

عمّار: والسؤال؟

محمد: السؤال «هل الشيخ يلمز في حكامنا؟

عمّار: شوف ببسط لك الموضوع يا محمد، قد يكون في حكومتنا الصلاح لكن هناك باطنة تؤثر عليهم و..

محمد: ليش قلت قد يكون ؟

عمّار: لأن هناك أطرافا تريد جعل الدولة علمانية وتريد جعلنا منفتحين على العالم فوق اللازم بطرق تخالف الشريعة الإسلامية وللأسف أن يكون العالم مليئا بالسموم المضرة على مجتمعنا.

محمد: إيش نوع ها السموم ؟

عمّار: بعد حرب الخليج أتى الأمريكان وجلبوا معهم ثقافتهم وتواجدوا على أرضنا وأشبه ذلك بالاستعمار أو الاحتلال المُبطن الذي يريد الاستحواذ على ثرواتنا، ولا تنسَ حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: (أخرجوا المشركين من جزيرة العرب). فوجود الأمريكان مخالفٌ لحديث الرسول وذنب عظيم، لكن لتعلم يا «محمد» أن الدولة ترمي بنفسها بين أحضان المرجئة والعلمانية، وهل تعرف أن الله سبحانه عاقب الكويت بغزو العراق لأنهم كانوا في غفلة واختلاط وانفتاح، فإن لم نستفد من كل ما يجري حولنا سيلحق بنا ما أصاب غيرنا ولو بعد حين.

محمد: مِن مين؟

عمّار: لاحقًا ستعرف وستذكر كلامي وقل هذا ما كان يقصد «عمّار»، لكن أنصحك بالاستماع إلى الشيخ «سلمان العودة» فلديه كل الأجوبة على أسئلتك ولا تنسَ الشيخ «سفر الحوالي» أيضًا.

محمد: أنا أستمع لـ«سلمان العودة» لكن «سفر الحوالي» سمعت له لكن زمان.

عمّار: إذًا ارجع واستمع لأشرطة الشيخ «سلمان العودة» جيدًا وتمعن فيها واقتنِ أشرطة الشيخ «سفر الحوالي».

لاحظ «محمد» أن أتباع الدعوة الصحوية مرتبطون ارتباطًا قويًا وأيدلوجيًا مُركبًا بمشايخ الصحوة، فكل حديثهم واستدلالاتهم بكلام أولئك الدعاة فقط والتي قد تطغى على استدلالاتهم بالقرآن الكريم أو أحاديث النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

بعد تلك المعركة الفكرية القصيرة قام أحد الشباب ورفع الآذان لصلاة الظهر وحرَّص «عمَّار» الجميع على ملازمة السنن الرواتب وقراءة القرآن قبل كل صلاة.

بعد الصلاة اتجه الجميع إلى «المسبَح» وكانت رغبة السباحة اختيارية، لكنَّ الشيء الملفت أن السباحة «بالفانيلة» «والسروال» الطويل، والعلة في ذلك أن التعري «فتنة» «وعورة».

في تلك اللحظات شعر«محمد» بتحركات المشرف «سيف» المريبة والتي تعطي اهتمامًا واسعًا لأحد الطلبة حيث عليه ملامح

الوسامة، وأخذ «محمد» يتابع «سيف» ويرمُقه بنظرات خاطفة، فلاحظ بعض التصرفات الغير أخلاقية والشاذة كنظرات الإعجاب ومسك اليد ولمس الفخذ للطالب «بداح».

كان «سيف» هو المسؤول عن إحضار «بداح» ومداراته والاهتمام به حسب توجيهات «عمار»، فذلك ديدن المشرفين، لكنَّ هناك من يستغل ذلك حسب توجهه المنحرف.

أعدَّت الشعبة الثالثة وجبة الغداء وهي عبارة عن «كبسة»، واجتمعت كل شعبة على سفرة لوحدها، ولاحظ «محمد» ترسيخ مفهوم الشُّعب في كل شيء لمحاولة بث روح الانتماء للفريق.

بعد صلاة العصر قام أحد الطلبة بإلقاء كلمة حول مفهوم الالتزام وتطبيقه في الحياة وكيفية الحفاظ على ذلك المبدأ وطُرق جذب الناس إليه.

لاحظ «محمد» التناقض في الطرح والتطبيق، فلم يشاهد سوى التعامل بالجفاء والشدة مع غير الملتزمين بالدين والحرص على الالتفاف حول أنفسهم بطريقة الأحزاب.

طلب «عمار» من الجميع القيام بشيء من الترويح عن النفس واللياقة البدنية، وأمَرَ المجموعات أن تتبارى فيما بينها باستخدام المصارعة أو مسابقة الجري وبعض الأحيان باستخدام أسلحة الصيد لغرض التصويب على هدف معين وجمع النقاط لكل شعبة وإعلان الفائز منها.

الفكرة الأساسية من ذلك كله الإيحاء المُبَطّن للتدريب على القوة والاعتماد على النفس والتركيز على جودة استخدام السلاح وذلك لحاجة قد تُستَغل لاحقًا عند الحاجة.

قُبيل أذان المغرب:

عمَّار: ياشباب موعدنا إن شاء لله الخميس القادم لذا سأختار لكم شريطا للشيخ «عمر الأشقر» لكي تفنّدوا محتواه في نقاط وفوائد ونطرحه في الساعة الثقافية، وبإذن الله خلال هذا الأسبوع سأتفق مع مشرفيكم ليسلموكم الشريط.

خلال فترة المركز الصيفي واظب «محمد» على حضور رحلات الخميس، وكان يصقل نفسه وعقله بعناية بعد كل رحلة ويتأثر أكثر بالطرح ويحاول أن يكون شيئًا مختلفًا.

في آخر رحلة والتي توافقت مع نهاية المركز الصيفي ومع آخر لحظات ذاك اليوم، توجه الشباب إلى السيارات وغادروا المزرعة، وبَقِيَت سيارة «مصعب»

والتي ركب فيها «محمد» وثلاثة معه وذلك لفترة ليست بالقصيرة، حيث كان «مصعب» في خلوة مع «عمَّار» بحديث جانبي.

بعد ذلك الاجتماع قَدِمَ «مصعب» وانطلقوا، وفي الطريق كان الصمت يعُمّ الجميع والمسجل يقرأ القرآن بصوت إمام الحرم المكي «سعود الشريم».

أرجأ «مصعب» إنزال «محمد» في الأخير حيث كانت العادة أن يكون هو الأول.

شَعرَ «محمد» بريبة وتوَّقع أن ذاك الحديث الجانبي بين «عمَّار» و «مصعب» يخصه.

تصفية التصفية

ينهج «السروريون» طريقة الإخوان المسلمين في مسألة التنظيمات السرية ومحاولة التكتم حولها قدر المستطاع، واختيار الأعضاء بعناية حسب ضوابط معينة تتوافق مع الأهداف، كما تعتمد في تنفيذ مخططات التنظيم «السروري» حيث يتخلل تلك الاجتماعات تكليف الطلاب بتلخيص بعض الدروس عن طريق الاستماع إلى بعض الأشرطة المنتقاة والتي يحددها المشرف لأجل أن يتخمر عقل الطالب بمحتواها. كما يحرص على عرض أشرطة الجهاد الأفغاني وبث روح الجهادية والغيرة على الأمة الإسلامية، ولم يكن القصد من ذلك التحفيز على الجهاد بشكل مباشر لكن مجرد تنبيه الطالب بفرضيته.

مصعب: خليتك آخر واحد لأن أبي أقولك حاجه مهمة.

محمد: سَمْ !

مصعب: سم الله عدوك أنت يا محمد متمرد وفيك حماس لكنه غير منضبط.

محمد: كيف متمرد وغير منضبط؟

مصعب: متمرد بمعني أنك تتصف بنزعة من الممكن الاستفادة منها للدعوة والإصلاح، وأما الغير منضبط وهو أنك بحاجة إلى تأصيل لكي يأخذ مساره بشكل صحيح.

محمد: كيف؟

مصعب: هناك اجتماع خارج نطاق المركز الصيفي نجمع فيها الشباب البارزين الذين نتوسم فيهم مستقبلا قياديا، لأجل ذلك تم اختيارك أحد أولئك والاجتماعات أشبه ما تكون بحلقة تحفيظ القرآن أو مكتبة شبابية صغيرة.

محمد: ومنهم أعضاء المكتبة ؟

مصعب: «عمَّار» وأنا» و «عثمان» و «عُروَة» وهناك مشرفون آخرون.

محمد: وما هو الجدول ؟

مصعب: دروس قرآن وتفسير وبعض العلوم الشرعية ويتخللها، الدعوة إلى الله.

محمد: ومتى وقتها؟

مصعب: تقريبًا بشكل يومي.

طلب «محمد» من «مصعب» أن يمهله وقتًا لإخبار والده بانتمائه إلى المكتبة حتى يتسنى له الخروج من المنزل، وطلب «مصعب» أن يؤكد لوالده أن الاجتماع يكون في مسجد «عمَّار» وأن محتوى المكتبة تحفيظ القرآن الكريم والرحلات فقط.

لم يجد «محمد» صعوبة في إقناع والده ولم يُشكّل له ذلك خوفًا أو ترددًا فعلامات تأثير المركز الصيفي باتت لدى والده جيدة رغم عدم معرفته بالمحتوى لأجل ذلك وافق:

أبو محمد: كيف توفّق بين الدراسة والمكتبة ؟

محمد: نجتمع بعد صلاة العصر وبعض الأحيان بعد صلاة المغرب ووقت الاختبارات ندرس مع بعضنا.

تلك كذبة تعمَّدها «محمد» على والده فلا مذاكرة تتم ولا مراجعة دروس، لكن مع اقتراب الامتحانات الفصلية يكون هناك ترتيب للمذاكرة في المساجد لأن المسجد هو منطلق كل شيء في دعوتهم «الصحوية» «السرورية».

بعد عدة لقاءات في تلك المكتبة المتنقلة والتي تتم في مكان لائذ إما في إحدى المزارع أو في منزل أحد المشرفين، كان «عمَّار» يُعيد على مسامع الشباب حال الأمة الإسلامية في الداخل خاصة وفي الخارج عامة، ويكرر مبدأ أن الأمة بدأت قائدة سائدة وكان على عاتقها نقل المسلمين من الجاهلية ووحل الظلام إلى بر الأمان والوعد بالجنان، ويعتقد «عمَّار» جازمًا أن هناك من ينهج عازمًا بمحاولاتٍ لتكسير مجاديف سفينة النجاة عبر التضييق على دعاة الإصلاح المُتَضَمن في الحُكَّام العرب وحاشيتهم العلمانيين الجهلة الذين يريدون لهذا البلد أن يتحرر من فطرته، وأن بتحررها تخرج المرأة من خِدْرِها تحتِ عُذر أن تتساوى مع الرجل، فطلبهم لذلك هو

ضرب للنصوص الثابتة بالتفريق اللوجستي بينهما، وأن أولئك أوغاد مخادعون غير ناصحين.

عمَّار: ياشباب دورنا أساسي في أن ندك صروح الطغيان التي يتسلح بها أعداء هذا الدين من الخارج، فهذا بلد الحرمين، وللأسف أن ولاة الأمر يصغون لأولئك، لذا فيتوجب علينا أن نرفع راية الحق ونعيد العزة والمجد، ولكن كيف؟ الإجابة لديكم وبأيديكم فكل شخص منكم سيكون له دور أساسي في ذلك وسنكلفكم بمهام فكونوا مؤتمنين عليها.

قرر «عمّار» أن يتعمَّق في رسالة الدعوة الصحوية وكان مؤمنًا بأن المرحلة تحتاج إلى الثبات الحقيقي والعزم على الإصرار وعدم الانتظار.

تأكدّ «عمَّار» من قدرته على قيادة الشباب الذين هم تحت إمرته وصقلهم بتركيبةٍ يراها هُوَ وأن صِغر سِنِّهم سيساعد على احتوائهم بالمنهج الذي يرغب.

وأخبَرَهم «عمَّار» بأنه يؤمن بمبدأ دعوة المحيطين أولاً، حيث سلَّمهم منشورات مطبوعة بعناية تحوي نصائح عامة للأمة تتحدث عن الأسرة وطُرق المحافظة على فطرتها، وكذلك المرأة وطرق صيانة عفتها، كما صِيغَت فيها الأحكام الشرعية المتعلقة بفتاوى حكم اقتناء «الدش» والمقصود به الستلايت معتمدين بذلك على فتوى الشيخ «محمد بن صالح العثيمين» الذي أفتى بأن من يقتنيه إنما هو خائن لأمانة رعيّته، كما تتخلل تلك المنشورات ما يخص الولاء و

البراء مستدلين بتعلّق الشباب بكرة القدم ولاعبيها المشاهير، وأن ذلك من نواقض الإسلام، وكذلك ما يخص الأمور الأخرى في العقيدة حيث يتم توزيعها على عائلات شباب المكتبة وأقربائهم ثم المحيطين بهم، والانتقال بعد ذلك إلى بيوت الأحياء والمساجد، ولكن بالاحتراز والحرص في وقت توزيعها بطريقة تضمن عدم كشف هوية المُوَزِّع تحوّطًا من لفت انتباه رجال المباحث.

تطرَّقَ «عمَّار» إلى المهمة الثانية، وهي في نظره الأهم والتي تنطوي تحت مظلة جمع الأموال عن طريق كوبونات مخصصة لكفالة الأيتام وكوبونات إفطار الصائمين وكوبونات دعم الجمعيات الخيرية وجمعيات تحفيظ القرآن الكريم حيث تُسلَّم المبالغ إليه.

عرف «محمد» لاحقًا أن تلك المنشورات كان القصد منها إحاطة المجتمع السعودي بالمستجدات من حوله وأن يكون منتبهًا ومجابهًا لها ورافضًا لمستجداتها وهي نوع من الأهداف التي يرجوها التنظيم الصحوي.

كما تبيَّن له فيما بعد أن تلك الكوبونات لا يذهب ريعها فعلاً إلى تلك الجمعيات بل يذهب أغلبها إلى دعم مُبَطَّن للتنظيم الصحوي والمجاهدين في أفغانستان والشيشان حيث يحتاج ذلك المشروع الدعوي إلى دعم كبير .بالأموال ولن يكون ذلك إلا بشحذ عواطف الناس المتعلقة قلوبهم بتقديم أي مبلغ في سبيل الله، فبطبيعة الحال هم لا يعلمون عن النية المبطَّنة.

المواجهة الأولى

استطاع «مصعب» إقناع «محمد» بأن يَنْتَقِلَ بدراسته إلى «المعهد العلمي» لأجل أن يكون قريبًا منهم وتحت نظرهم ومراقبتهم.

حاول «محمد» لأكثر من مرة مفاتحة والده بالموضوع وتردد تكرارًا ومرارًا لخشيته من ردة فعله.

أبو محمد: ليه وش عندك تبي تنقل؟

محمد: كل ربعي هناك.

أبو محمد: أنت تدري وش مستقبل المعهد.

محمد: إيه أدري.

أبو محمد: ما فيه إلا خيارات محددة وأنا أبيك تدخل كليات عليها القيمة.

محمد: بس أنا مابي أدخل إلا كلية الشريعة.

أبو محمد: الشريعة والدين تعلمه في غير الدراسة لكن الشهادة تحدد مصير تحتاجه في يوم من الأيام، وكثير ناس تخرجت من الشريعة وما لقت وظايف.

محمد: طيب أنا ما أحب العلمي وعارف نفسي ما راح أنجح ولا راح أجيب معدل عليه الكلام.

أبو محمد: أقول لك اسمع كلامي أحسن لك وإلا بتندم على اختيارك.

محمد: ماراح أندم وأنا أعرف إيش أسوي وأعرف نتيجة اختياري.

أبو محمد: بكيفك والله يوفقك، بس يجي اليوم اللي بتتذكر كلامي وتقول ليتني سمعت كلام أبوي، خذ مني وراجع نفسك أنا أعلم منك.

تمسَّك محمد» برأيه وانتقل إلى المعهد العلمي، فلم يكن يشعر بكامل الانتماء لمحيطه إلا بعد انتقاله، فاختلاطه بشكل يومي بشباب المكتبة جعل علاقته بالصحويين السروريين تتوثق.

نصح «عمار» «محمد» بالانضمام إلى حلقة تحِفيظ القرآن الكريم والمقامة بعد عشاء كل يوم في الجامع الكبير في المدينة حيث يجتمعون هناك ولم يتوانَ «محمد»، وانضم إليهم وبدأ بحفظ القرآن الكريم، واستمر على ذلك في دورة مكثفة إلى أن أتمَّ حفظ القرآن كاملاً في سنة واحدة.

خلال تلك الفترة كان «محمد» يقوم بالآذان في المسجد المجاور لمنزلهم في حال غياب المؤذن، وكذلك يؤم المصلين في حال غاب الإمام، فصوته الشجي في القراءة أكسبه روادًا يقصدون المسجد لأجل الصلاة خلفه.

اقترح «مصعب» على «محمد» بأن يتعين إمامًا لأحد المساجد حتى لا يضيع حفظه لكتاب الله ولا ينفلت منه وليكون معينًا له على الطاعة وعلى الحفاظ على الصلوات في وقتها وخاصة صلاة الفجر، كما يكسب تعاطف الناس مع صوته فهو يراه نوعًا من أنواع الدعوة.

استمر محمد بإمامة ذلك المسجد سنة كاملة ومن ثم تحول إلى مسجد تقام فيه صلاة الجمعة، وأصبح خطيبُ الجامع يُكلِّف «محمد» بخطبة وصلاة الجمعة في حال سفره، وكان «محمد» يتطرق في خطبه إلى بعض الأحداث المتاخمة ولكن بطريقة التلميح.

خلال تلك اللحظات تعرّف «محمد» على بعض أعضاء هيئة الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر عن طريق رئيسها الـذي كان من جماعة المسجد الذي يؤمه «محمد»، وعن طريقهم خاض غمار التجربة كمتطوع في الـ«هيئة» ولازم أعضاءها واستفاد من مهماتهم، فقد ارتبط بهم فترة تقرب العام وحـاول جاهدًا أن يتوظف بشكل رسمي لكن وظائفها محدودة ولم يحظَ بذلك.

اقترح «عمَّار» على شباب المكتبة بتفريغ أنفسهم لحضور الدروس العلمية الأسبوعية لـ«سلمان العودة» في الجامع الكبير بـ«بريدة» فوافقوه واستمروا على ذلك فترة من الزمن.

حضور «محمد «لدروس «سلمان العودة» وتواصله معها بشكل مباشر أكسبه في العمق أيديولوجية الدعوة الصحوية والتأثر بصفاتها وأهدافها.

فبعد التضييق على «سلمان العودة» ومنعه من إلقاء الدروس في الجامع الكبير انتقل إلى مكتبته الكائنة في منزله والتي هي عبارة عن غرفة صغيرة ممتلئة بأمهات الكتب والمراجع، ليُكمل إلقاء دروسه وسلسلته العلمية من هناك، فكان طلابه يملؤون المكتبة وحتى خارجها.

في تلك المرحلة اشتهر صيت ربيع المدخلي الذي يُعتبر من المناهضين للدعوة الإصلاحية عامة وللصحويين خاصة، فكان مشايخ الصحوة وطلابها يُحذّرون من الانسياق خلفه وخلف أتباعه وخاصة مؤسسها «محمد أمان بن علي جامي»

مناهضة «الجامية»

السلفية الجامية أو التيار الجامي دخل في عمق خريطة الدعوة السلفية في «السعودية» بعد أزمة الخليج العام 1990، ويتميز هذا التيار بخواص كثيرة أهمها العداء لأي توجه سياسي مناوئ للسلطة انطلاقًا مما يعتقدون أنه منهج السلف في السمع والطاعة وحُرمة الخروج على الحاكم، ويميل إلى المحافظة على الأوضاع القائمة والتعايش مع النظام السياسي ومجاملته في كثير من الأحيان، وكذلك ينهج التجريح والبحث وراء الشخصيات المُضادة سواء من أهل العلم أو الفكر. كما أتت الجامية لنبذ الحزبية والقطبية داخل الإسلاميين، حيث كانت الجامية مع فكرة تواجد القوات الأجنبية في المنطقة، وهذا وذاك مالا يتفق مع التيار الصحوي.

اعتقد أصحاب التيار الصحوي أن الحكومة السعودية كانت وراء ظهور «الجامية» لمواجهة مشايخ الصحوة وضربهما ببعض وإشغالهما عن الأحداث السياسية، بل إنهم سوقوا لذلك لضرب التيار الجامي في العمق.

هذا التيار سمي بـ«الجامية» نسبة لـ«محمد أمان بن علي جامي» الذي ولد في «أثيوبيا» وتعلم القرآن والتفسير هناك واللغة العربية، ثم انتقل إلى السعودية للحج، وبقي في «مكة المكرمة»، ومن ثم بدأ طلبه للعلم بالمسجد الحرام وتعرّف هناك على الشيخ «عبد العزيز بن باز» مفتي السعودية آنذاك، ونهل منه العلم الشرعي، ثم رافق «ابن باز»إلى «الرياض» وأكمل تعليمه العام هناك، كما تتلمذ على مشايخ السعودية ومنهم «عبد الرحمن السعدي»، ثم استقرَّ في «المدينة المنورة» حيث انتدب للتدريس في الجامعة الإسلامية» وبقي هناك، ولذا كان منطلق التيار الجامي من المدينة النبوية، وقد تأثر بهذا التيار الشيوخ «ربيع المدخلي» و «عبدالعزيز العسكر» و «فالح الحربي».

داخل المكتبة الصحوية كان «محمد» يستقبل التحذير من «الجامية» ومن دعاتها والابتعاد عن محاضراتهم وخطبهم وحتى من الاختلاط بأتباعهم فلم يعلم «محمد» آنذاك ما هو حديث «الجامية» ولا ماهيّة توجهاتهم لكنَّ مُشرفي المكتبات يرسّخون فيه عقيدة انتماء الطلاب الصحويين أيديولوجية العداء فقط لذلك التيار المناهض دونما الخوض في عراك الحراك الفكري، فكان الشحن فقط في سياق أن الجامية تُضمر وتُظهر العداء للدعوة الإصلاحية ولدعاتها، وأنّهم يتلقون الدعم من الحكومة مقابل القضاء على التوجه الصحوي.

استطاعت المكتبات الصحوية في ذلك الوقت أن تحتوي أتباعها وتمدهم بالتماسك والإصرار ضد «الجامية»، وزرعوا في قلوبهم الكره

والحقد على دعاتها والعداء لـ«الدولة» ورجالها، ولم يسلم من ذلك أعضاء هيئة كبار العلماء وعلى رأسهم الشيخ «عبدالعزيز بن باز» رحمه الله كونه من الذين زكّوا «محمد أمان جامي» وكذلك جواز فتوى دخول القوات الأجنبية للمنطقة ودوره البارز في إيقاف مشايخ الفكر «السروري».

إيقاف دعاة الصحوة

ذات مساء اجتمع شباب المكتبة في منزل «عُـروَة»، وكالعادة ينتظر الجميع حضور «عمّار»، لكن هذه المرة تأخر على غير العادة، وبعد ساعة من الانتظار طلب «مصعب» من «محمد» أن يبدأ بدرسه الأسبوعي الذي تم تكليفه به وهو عبارة عن تلخيص لشريط «سلمان العودة» بعنوان «أسباب سقوط الدول».

مصعب: أعتقد أن عمَّار سيتأخر أو قد لا يأتي فابدأ درسك.

محمد: إن شاء الله.

أخـرج «محمد» قصاصاته الورقية والتي دون فيها مُلخَّص الشريط:

محمد: اليوم ياشباب أبدأ معكم كما بدأ الشيخ «سلمان العودة» بأن الدهر دول والأيام قُلَّب ولو بقيت الدنيا لمَنْ قَبْلَنا لما وصلت إلينا ولو بقي المُلك في أيدي السابقين لَمَا وصل إلى اللاحقين، يقول الله عز وجل: (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)، وهكذا الشأن في الدول، فقد يطول عمر الدولة حتى تصبح كما كانت، دولة بني العباس أو دولة العثمانيين تنيف على خمسة قرون، لكن أتتها النهاية فانتهت وزالت

وبـادت، وقـد يقصـر عمـر بعض الـدول حتى تكون سنين قصيرة أو عشرات السنين على أكثر تقدير.

وذكر الشيخ أن أنواع زوال الدول نوعان:

زوال الملة: كما حصل في بلاد الأندلس، فإن الإسلام حكم في بلاد «الأندلس» نحو ثمانية قرون، وقامت فيها رايات الإسلام وبُنيت المساجد وارتفعت المنارات والمنابر، ومازال النصارى يجاهدون ويكابدون حتى استطاعوا أن يطردوا المسلمين شيئًا فشيئًا وبذلك زال الإسلام من بلاد الأندلس بالكلية.

زوال الدولة: مثلاً بلد إسلامي أهله مسلمون حَكَمَتْهُم دولة ثم خلفتها دولة أخرى، لم تغير من شرائع الملة شيء ولا من رسوم الدين شيء يذكر وبقي الإسلام حاكمًا مهيمنًا، لكن تغيَّر الأشخاص وتغيرت الأسماء وتغير نمط الحكم وهذا هو الكثير الغالب، ولا شك أن زوال الملة هو الأخطر، وهذا ما كان يحاوله الروس في «أفغانستان» فإنهم لم يكونوا يحاولون تغيير الدولة، بل كانوا يحاولون تغيير الملة وإبادة خضراء المسلمين وهدم المساجد على رؤوس المصلين، وهكذا فعلوا أو حاولوا أن يفعلوا في «عدن» فإن الشيوعية حين احتلت «عدن» لم يكن حكمًا بديلاً عن حكم بل كان دينًا بديلاً عن دينٍ وملةٍ أخرى، ولذلك قضوا على الإسلام فيها قضاءً مبرمًا أو كادوا وعلقوا جثث العلماء والمشايخ على الأعواد في الميادين العامة وهتكوا الأعراض ومنعوا الدروس وحِلق العلم حتى حصل من أمرهم ما حصل ومع ذلك

فالإسلام يتمرد على هذه القيود وينتفض مرة بعد أخرى كما نلاحظ في «أفغانستان» و«فلسطين» و«عدن».

طُرق الباب واستوقفَ «عُروَة» درس «محمد».

دخل «عمار» وبرفقته «علي» وعلى وجوههم أثر السفر ويرتسم عليها غضب وحزن.

عمَّار: ياشباب كنا اليوم في «بريدة» وكان الشيخ «سلمان العودة» قد سافر للرياض لإلقاء بعض الندوات والمحاضرات، فسمع طلابه أن الدولة نوَت اعتقاله فتوجهوا للرياض لحماية الشيخ وجلبه لـ«بريدة»، وبالفعل جلسنا ننتظرهم ليعودوا، وحينما وصل الشيخ كانت بمعيته عشرات السيارات تحميه من كل الاتجاهات، ياشباب والله الذي لا إله إلا هو تركنا منزل الشيخ وطلابه معتصمون أمام منزله وكأنهم يحرسونه وما هو إلا كذلك. أرأيتم هذا القبول للشيخ؟ إنها محبة الله وحمايته، أتعلمون لماذا الشيخ مهدد؟ لأنه يقول كلمة الحق ولا يخاف في الله لومة لائم، الآن المطلوب منا التمسك بمنهجنا وأن لا نخذل مشايخنا وأن تستمر الدعوة، هذا هو الجهاد الحقيقي الذي نؤجر عليه بعد الجهاد الأعظم.

كلمات «عمَّار» كان لها وقع الأثر على «محمد» وعاد به شريط الأيام إلى الوراء وتذكر السيناريو المُحتمل الذي أخبره به «عمَّار» عندما ناقشه «محمد» حول كلمات «أحمد القطان» في شريطه» مسلسل تدمير الأخلاق».

هنا آمن «محمد» بالرسالة الصحوية وزاد حماسه، وفي ذات

الوقت امتلأ داخله حقدًا على ممارسات الدولة.

أعاد «محمد» النظر في مُجمل الأحداث وأول قرار اتخذه بعد عودة للمنزل هو تجميع كل أشرطة «سلمان العودة»، والاستماع إليها بدقة وربطها بالواقع، وخاصة تلك التي تحتوي عن التنبؤات المتوقعة وركّز بشدة على الشريط الذي لخصه لشباب المكتبة وأعاد سماع الشريط من جديد وانتبه إلى أن الدرس العلمي كان بتاريخ 7/ صفر/1411هـ أي قبل أكثر من أربع سنوات.

تأكد «محمد» أنه على الطريق الصحيح وقرر أن يبذل الجهد في حمل الرسالة الصحوية.

في اليوم التالي وبعد صلاة العصر اجتمع شباب المكتبة في منزل «عمَّار» وأثناء الأحاديث الجانبية حول المستجدات في موضوع الشيخ «سلمان العودة» وإذ بالهاتف يرن.

بواردي: السلام عليكم.

عمَّار: عليكم السلام كيف الحال؟

بواردي: الحمد لله.

عمَّار: بشرنا.

بواردي: فيه حصار من رجال الشرطة لمنزل الشيخ سلمان.

عمَّار: والله العظيم ؟؟

بواردي: ويطالبونه أن يرافقهم لإمارة القصيم، وهناك محاولات من الشباب لمنع قوات الأمن من اصطحابه ودارت مفاوضات بينهم

وانتهت إلى مرافقة الطلاب للشيخ والتوجه للإمارة.

عمَّار: لا حول ولا قوة إلا بالله، الله لا يهينك ولا يحرمك الأجر علمنا بالجديد.

بدأ «عمَّار» بإجراء بعض الاتصالات ومن ثم جلَّس لبرهة يفكر.

«عمارٍّ»: من يبي يخاويني لـ«بريدة».

رَمَقَ الشباب بعضهم إلى بعض بنظراتٍ تنتظر أول مبادرة وبلا تردد نطق «مصعب» برغبته للذهاب.

وأيضًا لم يتردد «محمد» بالموافقة وطلب من «عمَّار» الاتصال بأهله عبر الهاتف.

نوف: نعم.

محمد: السلام عليكم.

نوف: عليكم السلام.

محمد: وين أمي؟

نوف: لحظة يمه يمه محمد يبيك.

والدة محمد: هلا.

محمد: شلونك يمه.

والدة محمد: الحمد لله من وين تكلم؟

محمد: أنا في بيت واحد من الربع بس بقولك فيه محاضرة بعد المغرب وبعدها معزومين على العشاء في مكتب الدعوة، وإذا سألكم أبوي عني علموه ويمكن أتأخر.

والدة محمد: أن شاء الله.

اتصال «محمد» على أهله كان القصد منه جس النبض لأنه لم يَعْتَد أن يتأخر على المنزل بعد منتصف الليل لكنَّ الملفت للنظر استماتته في الكذب.

وَضَّحَ «عمَّار» الموقف الحساس في تلك المرحلة واقترح أن يَتَوَزّع الشباب على 3 سيارات منعًا للفت الانتباه.

انطلق الجميع من «الزلفي» متجهين إلى «بريدة» والتحقَ «محمد» بسيارة «مصعب» كالعادة.

محمد: ماذا تتوقع في تطور الأحداث؟

مصعب: بصراحة السيناريو مخيف لكن على حسب الذي سيُطرح على الشيخ في الإمارة.

محمد: تتوقع يعتقلونه؟

مصعب: ما أعتقد لأن طلاب الشيخ لن يتركوا لهم فرصة.

«بريدة» تبعُد عن «الزلفي» 100 كيلومتر تقريبًا وعلى مشارفها كان هناك نقطة تفتيش، وعند الاقتراب من النقطة نظر «محمد» إلى وجه «مصعب» وإذا به مرتبك، وعند النقطة تتقدمهم 4 سيارات ووقفوا في انتظار الدور للعبور، لكنّ الوقت طال فكل سيارة يتم التأكد من هوية ركابها.

جاء دورهم ونظر «الشرطي» في وجوه الرُكاب وطلبَ «هوياتهم الشخصية»

الشرطي: وين رايحين؟

مصعب: عنيزة.

الشرطي: وش عندكم؟

مصعب: ليش؟

الشرطي: أنا أسألك.

مصعب: بنحضر درس الشيخ ابن عثيمين.

الشرطي: وقف على جنب وخلكم بالسيارة.

شَعُرَ «محمد» بالخوف والريبة ودار في مخيَّلته سيناريو احتمال اكتشاف الأمر لأنه يخشى من والده أكثر من أي شيء.

طال الانتظار والارتباك حيث لا تزال سيارتَي «عمّار» و«علي» متوقفتان عند نقطة التفتيش.

بعد مرور 15 دقيقة من الانتظار المربك أَقْبَلَ الشرطي على سيارة «مصعب» وسلمهم بطاقات الهوية.

كان اتفاق الجميع أن يكون اللقاء مُقَابِل «جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية». انتظر «مصعب» ومن معه قدوم البقية في مواقف الجامعة ولم ينتظروا طويلاً.

مصعب: بشرّوا ؟ وراكم طولتوا عند التفتيش؟

عمَّار: سيارتي رخصتها منتهية وسيارة «عُـروَة» كـان مشغل شريط «سلمان العودة» وسألوه بعض الأسئلة.

مصعب: زين الحمد لله عدت على خير.

اتجه الجميع إلى مقر إمارة منطقة القصيم حيث كان الطريق مزدحما والأجـواء في المدينة مشحونة وإذ بالمكان يَعُجُّ بشباب الصحوة من طلاب الشيخ «سلمان العودة».

كل الطرق المؤدية إلى الإمارة مغلقة لأجل ذلك أوقَف الشباب سياراتهم مع جموع السيارات وارتجلوا إلى نقطة الالتقاء أمام بوابة الإمارة.

وقف «عمَّار» ينظر في وجوه المتجمهرين وكأنه يبحث عن شيء ما وبالفعل وجد أحد أصدقائه وأخبر أتباعه أن ينتظروه حتى يعود.

أمام بوابة الإمارة وقف الكل يهتف بصوت واحد وهم يكررون «الله أكبر الله أكبر»، وفي هذه الأثناء تدور أحاديث جانبية تتكهن بما يحدث داخل أروقة الإمارة، فهناك من المقربين من «سلمان العودة» برفقته رفضوا فكرة لقائه بأمير المنطقة منفردًا.

عاد «عمَّار» يحمل أخبارًا سارة للشباب تتحدث عن احتمال خروج الشيخ «سلمان العودة» دونما اعتقال وأن هناك تَجَمُّعًا سيكون في أحد الجوامع القريبة من منزل الشيخ وسيحضره الكثير من المشايخ وطلاب العلم.

بعد لحظات خرج «سلمان العودة» من داخل الإمارة وارتفعت الهتافات بالتكبير والحمد والشكر لله ومن ثم قاد «سلمان العودة» تلك الجموع في مسيرة عارمة متجهين إلى الجامع الذي تم تحديده.

وصلت الجُموع إلى المنطقة المحيطة بالجامع وكانت مزدحمة

بمئات من شباب الصحوة ومشايخها وجلس الأغلبية على شكل صفوف متتالية قبالة ساحات الجامع وأيضًا في محيطه وجلَسَ «عمّار» ورفاقه على إحدى السجّادات، كما أن هناك من جلس على الرصيف.

حضرت إلى الجامع أسماء بارزة من المشايخ والحقوقيين وعلى رأسهم «يحيى اليحيى» و«صالح المحيميد» و«علي الخضير» و«إبراهيم الدبيان» والقاضي السابق والمحامي اللاحق والناشط الحقوقي «سليمان الرشودي».

في الجامع تناوب أولئك المشايخ وغيرهم الخطابات والندوات على مدار 3 أيام وتحدثوا فيها عن مالم يُصَرِّحوا فيه علنًا من قَبلُ وتطرقوا فيها عن حال الدعوة الصحوية ومآلها والاستهداف الذي تواجهه من قِبَل الدولة.

ألقى الشيخ «سلمان العودة» حينها خطبة عصماء وصف فيها حال الأمة مستعينًا بشرح مطوَّل عن مسيرة الدعوة الإصلاحية وأهدافها وأن هناك من يريد هدم حصنها.

كانت تلك الندوات تُطالب الدولة بتنفيذ أهداف الدعوة الصحوية بشروطها و قواعدها وبالضوابط الإسلامية التي تراها تناسب رسالتها، حيث كان الخطاب واضحًا بأن تكون الدولة تحت سيادة الخلافة الإسلامية الجديدة.

من أبرز المطالب إخراج القوات الأجنبية من المنطقة ومقاطعة الدول العربية الجائرة والتي تضيق على المسلمين كـ«جمهورية مصر

العربية» والمتأصلة برئيسها «محمد حسني مبارك» الذي يطبق في دولته الأحكام الوضعية، وأيضًا تحديد خطوط العلاقات مع الدول الغربية، إضافة إلى ذلك الموقف ٱلموحّد على القضاء على المنكرات داخل السعودية.

بعد انتهاء اللقاء من اليوم الأول غادر «عمَّار» ورفاقه إلى «الزلفي» حيث كان الحديث في الطريق يناقش مجريات أحداث ذلك اليوم.

دخل «محمد» إلى غرفته مُتْعَبًا ومُنْهَكًا وغير مستوعب لما شاهده وسمعه، فلم يكن المشهد السعودي معتادا على مثل تلك الاحتجاجات والمواجهات الكلامية.

قَلَّبَ «محمد» في رأسه ما شاهده من أحداث وبعث بتساؤلات في ذهنه.

هل سَيوَّلد ذلك ضغطًا قد ينفجر في أي لحظة؟ أم نحن مقبلون على مواجهات قادمة مباشرة أو غير مباشرة؟

لكنَّ الأكيد أنه لم يجد الإجابة ونام تلك الليلة وهو يشعر بالرضا والفخر لأنه يعتبر أن التاريخ سَيُسَجّل له خوضه تلك المعركة الفكرية.

في اليوم التالي جاء «مصعب» إلى منزل «محمد»:

مصعب: بتروح معنا لـ«بريدة»؟

محمد: الوالد عنده عزيمة وما فيه غيري يباشرهم.

مصعب: أجل إذا ما «بِتّنا» هناك بتخاوينا بكره.

محمد: إن شاء الله.

بقي «محمد» على أعصابه فلا هواتف خلوية يستطيع من خلالها معرفة المستجدات على الساحة فَقَدَرُهُ كان مع ضيوف والده.

بقي «عمَّار» والبقية في بريدة تلك الليلة وحضروا ما تبقى من اللقاءات المستمرة ولم يعودوا إلا بعد اليوم الثالث والأخير من اللقاءات الصحوية في الجامع الكبير.

في اليوم الرابع الذي يوافق يوم الثلاثاء وبعد الظهيرة قَدِمَ «مصعب» إلى منزل «محمد» وأيقن أن مجيء «مصعب» ما هُوَ إلاّ لأمرٍ جَلل.

محمد: السلام عليكم.

مصعب: عليكم السلام.

محمد: عسى ماشر؟

مصعب: الشيخ سلمان اعتقلوه اليوم الصبح على غفلة.

محمد: شلون ؟ وين كان طلابه عنه؟

مصعب: بعد 3 أيام من الندوات والمحاضرات كان طلابه مُرهَقِين وما كان فيه أحد عند الشيخ وأصبحوا على الخبر.

محمد: اعتقلوه لحاله ؟

مصعب: معه آخرون، لكن فيه معلومات عن اعتقال الشيخ «سفر الحوالي» والشيخ «ناصر العمر».

محمد: لاحول ولا قوة إلا بالله هذا يُسعِد «الجامية» ويقوي شوكتهم.

مصعب: المهم «عمَّار» يريدنا اليوم ضروري وبصطحبك بعد صلاة المغرب إن شاء اللّٰه.

أُصيب «محمد» بالذهول وكأن العالم يتهاوى وتعهَّد ببقاء انتمائه الصحوي ضد كل مُتآمر، بل إن الحقيقة أنهَ حُمِّلَ طاقةً تفوقه منذ أن دخل مع تلك المكتبة.

الأيام الأخيرة

اجتمع شباب المكتبة في منزل «عمَّار»

عمَّار: سيكون لنا منهج جديد في التعامل مع الوضع الراهن.

محمد: من أي ناحية وكيف؟

عمَّار: طريقتنا في الدعوة الجديدة ستكون أكثر حرصا وبخطط مدروسة وبشكل أدّق فالوضع ليس كما كان لأنه من الطبيعي انتشار رجال المباحث وستصبح أعينهم متفتحة بشكل أكبر، فلا بُدَّ أن لا نُغفل عن أعيننا أن شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله سُجن واضطهد لكن صبر واحتسب وبقيت رسالته إلى يومنا هذا عامرة مُتَّبَعَة، فالسجن لم يكن في يوم من الأيام حاجزًا لأي رسالة صالحة فالذين وَرَّثوا رسالة ابن تيمية هم طلابه، لذا فنحن بمقام أولئك الطلاب فلا ينبغي أن نتقاعس وما ابتُلِيَ به مشايخنا لابد أن يزيد من قوتنا وحماستنا، وعلينا استكمال مسيرتهم ولكن لابد من أخذ الحيطة والحذر لذا ففي الأيام القادمة ستكون لقاءاتنا خفيفة للاحتياط وبشكل غير متواصل.

محمد: والسبب؟

عمَّار: حتى تتضح الأمور على الساحة لأني أعتقد أنه سيكون هناك تجفيف لمنابع الصحوة ومراقبة كل تجمُع.

قبل أن يفترق الشباب أتى «عمَّار» بالمسجل وطلب من الجميع أن ينصتوا جيدًا لآخر رسالة وجهها «سلمان العودة» لطلابه الصحويين وللمسلمين عامة، والتي لم يلقِها علنًا من قَبْل، بل كانت مُجَهّزة ليوم كهذا، فبُثت بعد سجنه وهي بعنوان «رسالة من وراء القضبان» حيث قال فيه:

هذا الفساد الموجود والذي لا يشك فيه أحد على الإطلاق وإن اختلفت الطرق في إصلاحه. هذا الفساد له أنصار كثيرون وله متحمسون وله سدنة وله أرباب من البشر يرون بقاءهم في بقائه ووجودهم في وجوده، وأنَّ زواله كشف لهم، لذلك فهم ضد كل مصلح، يسعون إلى التأليب عليه ويحاربونه بكل وسعهم ليلاً ونهارًا سرًا وجهارًا وتحويل المسلمين وجعلهم عبارة عن قطيع يساق إلى مرعاه، ولا يدري إلى أين يساق وليس من حق الواحد أن يُعبِّر ولا أن يتكلم ولا أن يبدي رأيه، بل عليه أن يبصم على كل شيء ويؤيد كل شيء ويوافق على كل شيء وأن لا يعترض، وإلا فإنه يكون حينئذٍ وضع نفسه تحت طائلة العقاب والتعذيب والتكفير والأذية وتسلط الأجهزة الأمنية.

واسْتطرَد قائلاً:

يراد وضع العراقيل أمام أي إصلاح سواء كان إصلاح فرد أو

تيار، بحيث أن الناس يرون أن الطريق صعب وشاق فيرجعون كما يقال من أول الدرج أو من أول السلم، إذًا المهمة هي مهمة إصلاح أوضاع الناس حتى أوضاع الناس الدنيوية.

بعد سماع الشريط بأكمله دب في داخل «محمد» الأمل كما كان ذلك الشعور ممزوجًا بالحسرة والألم.

افترق الجميع بعد الخروج من منزل «عمَّار» وعند منزل «محمد» طلب «مصعب» أن يكون على تواصل معه عبر هاتف المنزل وحرَّصهُ بمُكالمته بعد صلاة العصر مباشرة يوم الأربعاء القادم فقد يكون هناك اجتماع آخر.

رغم قلق «محمد» من توقف اللقاءات مع شباب المكتبة إلا أنه تعهد مع نفسه أن لا يهتز من تلك الأحداث وأصرَّ بتمسَّكه على البقاء على طريق الحق حتى وإن كان سيُلحق به الأذى.

في أحد الأيام وبعد صلاة العصر قابل «محمد» ابن حيّهم «سعدون» :

سعدون: السلام عليكم.

محمد: وعليكم السلام.

سعدون: أخبار؟

محمد: الحمدلله.

سعدون: عرفت وش صار؟

محمد: عن إيش تتكلم؟

سعدون: كشفوا المشرف «سيف» مختلي بـ«بداح» في غرفة تحفيظ القرآن بالمسجد.

محمد: «سيف»؟

سعدون: إيه مسوي علينا مطوَّع.

بعد سجن المشايخ ظهر جليّا انتكاس الكثير من الشباب الملتزم الذين كانوا ضمن أفراد المكتبات والمراكز الصيفية، لكنَّ أولئك لم يكن لهم دور بارز في أي توجه دعوي أو إصلاحي أو أنَّ البعض منهم يُظهر الالتزام لحاجة في نفسه أو حسب ما تقتضيه المصلحة في تلك المرحلة.

يوم الأربعاء الموعود اتصل «محمد» بمنزل «مصعب»:

محمد: السلام عليكم.

مصعب: عليكم السلام هلا بمحمد.

محمد: هلا بك بشّر ما الجديد؟

مصعب: أنا و «عمَّار» وجدنا شقه في سكن الجامعة في بريدة وسننتقل إلى هناك.

محمد: وباقي الشباب؟

مصعب: تقريبًا الأغلبية.

محمد: والسبب؟

مصعب: في وقت لاحق لما نتقابل أخبرك الآن ما ينفع.

على خير إن شاء الله.

كان خيار «عمَّار» و«مصعب» والبقية هو القُرب من طلاب «سلمان العودة» وبعض المتعاطفين معه وإعادة ترتيب الأوراق من جديد بعد أن تم التضييق عليهم والقضاء على كل التجمُّعات واللقاءات.

قارئ رياض الصالحين

مع كل فرض يُصلّيه «محمد» في المسجد لم يشد انتباهه شخصية قارئ «كتاب رياض الصالحين» بعد صلاة العصر، ولم يخطر بباله ولو للحظة أن يكون هذا الشاب نقطة التحول للمرحلة الجديدة المرتقبة في حياته.

«خليل» ابن الجار في الحي الجديد، اطمئن له والد محمد وأراده خليلاً لابنه لأن على سماته الدين والاعتدال، فكان ديدنه قراءة كتاب «رياض الصالحين» على مسامع المصلين كل يوم.

جاء والد محمد إلى ابنه مبشرًا بصديق جديد وأنه مناسب وعلى «محمد» أن يطيع و يلتقيه.

أدرك «محمد» لاحقًا أن ثمة ترتيبًا تمّ، يقتضي اللقاء بينه وبين «خليل» وذلك عن طريق «وليمة» لتناول العشاء في منزل الجار، وكان «عبدالله» الشقيق الأصغر لـ«محمد» طرفًا في ترتيب «الدعوة»وذلك ليُلطف الأجواء ويساعد في الربط بين «محمد» و «خليل» لأن «عبدالله» كان صديق وزميل ابن الأخ الكبر لـ«خليل».

بعد يوم العَشَاء انطلق «محمد» مع «خليل» لأنه الخيار الوحيد

بعد الانقطاع عن شباب المكتبة، كما نجحت رغبة والده في توثيق علاقتهما، فقد كان «خليل» أحد أعضاء مكتبات المركز الصيفي في وقت سابق.

أصبح لقاء «محمد» بـ«خليل» أكثر من البقاء في المنزل، كما أن مكوثه خارجه إلى ما بعد منتصف الليل أصبح ديدنه تكرارًا ومرارًا.

توثقت العلاقة مع «خليل» إلى أن تم مراد والد محمد وأصبح «خليل» مقربًا لدى العائلة.

لا زال «محمد» يشعُر بالحنين إلى لحظات المكتبة لأن صداقته مع «خليل» تُشعره بالفتور فـ«خليل» يُعتبر من الأشخاص العاديين الذين لا يحملون ذلك الهم الصحوي الذي اعتنقه،«محمد»فـ«خليل» مجرد شاب ملتزم يعيش يومه.

بعد ذلك الهدوء في الدعوة الصحوية التف طلاب الشيخ «سلمان العودة» ودعاة الصحوة حول مشايخ الخط الثاني في «بريدة» أمثال الشيخ «يحيى اليحيى» صاحب مشروع «السنة النبوية» والبعض الآخر التصقوا بمشايخ الزُهّد أمثال الشيخ «سليمان العلوان» الذي أصبح في نهاية المطاف من تسعينيات القرن الماضي المُنظر الأول لتنظيم القاعدة، أما في الرياض فالتف شباب الصحوة هناك حول الشيخ المحدث «عبدالله بن سعد».

كما برز أثناء تلك المرحلة في «الرياض» الشيخ «محمد الدويش» وفي مدينة «الرَّس» التابعة لمنطقة القصيم الشيخ «ابراهيم

الدويش»،حيث اشتهر صيتهما ووصفا بخلفاء دعاة الصحوة لكن بأسلوب مختلف حيث اتخذت محاضراتهما ودروسهما منحى التوجه التربوي وتهذيب النفس.

بدأت الإجازة الصيفية وكان لوالد محمد «مزرعة» يمارس هوايته وتجارته عبر محاصيل زراعية، وطلب من «محمد» و«خليل» المرابطة معه فيها ومساعدته، فكانا يحضران عصرًا لجمع محاصيل«الخضار»، وبعد صلاة المغرب ينصرفان متعبيَن ينتظران صلاة العشاء وما هي إلا سويعات حتى ينطلقان إلى المطل الغربي للمدينة الذي يكشفها عبر منظر رائع ونسمات هواء عليل، فيضعان البساط على سفح الرمل ويتوسدانه وهما يرمقان نجوم الليل الساطعة، فمع الإرهاق لا يدوم الوقت طويلاً حتى يغطان نوم عميق، ومن هنا كانت التجربة الأولى والتمرد الآخر والنوم خارج المنزل فلو علم والد محمد بذلك لأنَّبَه أشدّما تأنيب، ومع آذان الفجر يستيقظان بنشاط ويتجهان إلى المزرعة وبعد صلاة الفجر يجلبان المحصول إلى سوق المدينة.

معرفة «محمد» بـ«خليل» جلبت له صداقات أُخرى لا تخرج عن طابع المتدينين فتمرد يتلوه تمرد، لذا قرَّر أن يوسّع تلك الصداقات.

خليل: فيه شباب يجتمعون في استراحة ويجلسون بشكل يومي.

محمد: إيش عندهم.

خليل: دروس و دعوة.

محمد: نفس برامج الشباب اللي في المركز الصيفي والمكتبات.

خليل: تقريبًا بس أقوى.

محمد: تعرفهم من زمان؟

خليل: من سنة.

محمد: توكل على الله.. ومتى الوقت المناسب؟

خليل: قريب جدًا.

شَعرَ «محمد» أن هذا سيتيح له الطريق مرة أخرى ليعود إلى نشاطه وحماسه بدلاً من الخمول والفتور الذي أصابه، ففي تلك الفترة ركزَّ على احتواء نفسه مع أشرطة المشايخ المعتقلين التي سُحبت ومُنِعت من سوق التسجيلات الإسلامية، كما ارتبط بأشرطة خُطب الشيخ «عبدالوهاب الطريري» الأسبوعية التي بقيت متواجدة بكثرة على الساحة قبل أن يتم إيقافه عن الخطابة في وقت لاحق من تلك الفترة.

إمارة الاستراحة

حدد «خليل» موعد زيارة شباب الاستراحة، فعظُمَ الأمر لدى «محمد» واستشعر بحماسة جديدة، فهي تجربة أخرى تُشعره بميول الانتماء لمنهجه الأساسي.

ففي يوم مُشمس من بعد صلاة العصر اتجه «محمد» مع «خليل» إلى الاستراحة بسيارته الهايلوكس «93» الخالية من نظام التكييف، وفي الطريق أحبَّ «خليل» أن يُعَرِّفَ «محمد»بأعضاء «الاستراحة»:

«سويدان»: أمير الاستراحة وطالب شريعة في السنة الأخيرة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية فرع «القصيم» وصاحب علم شرعي نهله عبر طلبه على يد الشيخ «محمد بن صالح العثيمين» ويتبنى مشروعا دعويا سرّيا.

«موسى»: طالب بكلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في «الرياض» وصاحب روح مرحة وقد يختلف مع «سويدان» أحيانًا.

«صالح»: طالب بكلية الشريعة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية فرع «القصيم» ومتحمس للدعوة رغم عجلته في إطلاق

الأحكام على كل شيء وقد يخطئ ويُحرج نفسه والآخرين في بعض الأحيان.

«بُدير»: طالب ثالث ثانوي ومؤذن مسجد ومزاجي من غير تهور ويتصف بالهدوء.

محمد: إيش يعني مشروع دعوي «سري».

خليل: بتعرف بعدين.

أحسَّ «محمد» من كلام «خليل» بأنه لا يريد الإفصاح عن نوع الدعوة السرية لكونه غير مُتَأكد من ارتياح «محمد» لشباب الاستراحة بعد اللقاء بهم وبذلك لا يكون مُلمًّا بشيء.

تقع الاستراحة داخل حي سكني جديد فلا شوارع مسفلته ولا أرصفة مُشَيّدَة.

شدّ «محمد» منظر الاستراحة من الخارج فأسوارها مرتفعة وبابها صغير في المنتصف مهجور، وأكوام الأتربة والأحجار تَسُدُّه، والدخول للاستراحة عبر باب «الكراج» وهو الباب الكبير ذو الدفتين.

ترجَّل «محمد» من السيارة متأملاً في الباب الغير مطلي بأي لون ماعدا آثار الصدأ الذي تشكَّلَ على جوانبه ووسطه.

طرق «خليل» الباب مرة ومرتين وثلاثا ولم يجبه أحد واتجه إلى آخر السور وأخذ بـ«جلمود» كبير وطرق السور حيث يقع جدار غرفة الجلوس.

لحظات وفُتح الباب فإذا به «بُدير» والذي عرَّف بنفسه لـ«محمد» لحظة سلامه عليه.

دخل الجميع إلى الاستراحة وانتاب «محمد» نوع من القشعريرة فالأرض قاحلة وجلاميد الأحجار متراكمة.

تقدَّم قليلاً فإذا أمامه «حظيرة» طيور «الحمام» غير مُنَسّقة وغير مُنَظَّفة من مخلفاتها.

حارت عينا «محمد» يسارًا فإذا بمساحة كبيرة لا خضرة ولا شجر ولا ماء وعلى مد بصره فناء الاستراحة تملؤه مجموعة نفايات متناثرة.

تقدَّم قليلاً وهوَ ينظرُ إلى قدميه أثناء صعوده عتبات الدرج المُتصدعة، رفع رأسه وإذا بغرفة أمامها مجموعة أحذية.

عند باب الغرفة خلع «محمد» حذاءه ودخل خلف «خليل» ومن خلفه «بُدير» وألقى تحية الإسلام، وفي لحظات خطواته الأولى داخل الغرفة حرَّك بصره يمنة ويسرة فإذا بسقف متقشر ومتصدع وأرضية مفروشة بقطع من الفرش المُرقع وتكَّايات أكل الدهر عليها وشرب، أما جهاز التكييف «الصحراوي» فقديم ومزعج.

سلَّم «محمد» على «سويدان» «أمير الاستراحة» ثم أكمل السلام على البقية.

سويدان: كنت مع شباب قبل؟

محمد: شباب المركز الصيفي.

سويدان: مع أي مُشرف؟

محمد: «مصعب».

سويدان: هؤلاء يفتقرون إلى التأصيل الشرعي في طلب العلم، فكل اجتماعاتهم تنضوي تحت طابع الحماس الغير منضبط والمندفع الغير مدروس، فالشاب لابد أن يكون لديهم نهج علمي حتى يدعو إلى الله بعلم.

محمد: بهذا أنت على حق لم نكن نتلقى دروسًا علمية، فقط تلخيص محاضرات وخُطب.

سويدان: هذا لا يبني حصانة للمسلم فهو مجرد حماس طائش وقد ينطفئ في أي لحظة.

محمد: اتفق معك فبعد انقطاعي عنهم لفترة شعرت ببرود.

سويدان: هناك دروس في العقيدة وأصول الفقه ومصطلح الحديث أقدمها فأتمنى انضمامك ففيها التأصيل الحقيقي.

محمد: متى توقيتها ؟

سويدان: سنبدأ الأسبوع القادم بإذن الله ونستغل الإجازة الصيفية، لذا فسيكون يوم السبت بعد صلاة الظهر سأشرح «أصول الفقه»، والاثنين «مصطلح الحديث»، والأربعاء «الأصول الثلاثة».

بعد حديث «سويدان» اطمأن «محمد» من توجّه شباب الاستراحة، وقرر الانضمام لهم.

أيقن «سويدان» أن «محمد» صافي الذهن وسهل التشكيل وأنه بعد عدة زيارات للاستراحة سيكون عضوًا فاعلاً.

خلال الزيارات المتعددة التي قام بها «محمد» للاستراحة كان يتخللها في بداية الأمر جلسات شاي ونقاشات تربوية وشرعية، وكان «سويدان» يترك المكان ويخرج من الغرفة ويدخل إلى الغرفة الأخرى والتي كانت دائمًا مغلقة بإحكام، ومن ثم ينادي أحد الشباب ويغيبان عن الأنظار لنصف ساعة، ثم يخرجان مُحمّلين بصندوق متوسط الحجم وينطلق بها أحدهم خارج الاستراحة مستقًّلاً سيارته ليعود بعدها بساعة.

تذكَّر «محمد» كلمة «خليل» عندما قال «مشروع دعوي سري»، وبدأ يتخيل الغرفة المغلقة وماذا قد يكون بداخلها ولماذا يتجنب «سويدان» دخوله معه أو حتى الإفصاح عما بداخلها.

بعد أسبوع بدأت الدورة العلمية الخاصة بشباب الاستراحة، وكان «محمد و«خليل» يترافقان خلال الأيام الثلاثة على المسجد الذي يؤذن فيه «بُدير» والمقامة فيه دروس«سويدان»، فقد ثنى «محمد»ركبتيه ونهل من تلك العلوم الشرعية والتي اعتبرها حصيلة حصينة ومنهجًا أنار له الطريق.

في إحدى لقاءات الاستراحة شدَّ «سويدان»على يد «محمد» وهمس في أُذُنه «اتبعني» وسبقه إلى الخارج وركب سيارته:

سويدان: أرى فيك عقلاً صافيًا وحماسًا فتيًا والآن أنت على طريق التأصيل

محمد: ماذا تقصد»؟

سويدان: يحتاج الإنسان في هذه الدنيا إلى هدف سامٍ وأن لا يصبح متشتتًا بين ملذاتها، وبقاء المسلم فيها محدود، فهو كعابر سبيل، ونحن في زمن كثر فيه الجهل واتّباع الشهوات وكثرة البدع والضلال، فكثير من الدول الإسلامية والمسلمين في العالم أجمع يغبطوننا على قربنا من الحرمين الشريفين وكذلك قربنا من فطاحلة المشايخ، لذا فأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حُمر النعم، وإني أرى فيك مستقبلاً قياديًا مشرقًا وسيكون لك شأن عظيم وبرأيي أن تنضم إلى فريق الدعوة معنا.

محمد: أين مقرّه؟

سويدان: هنا في الاستراحة تعال حتى تلقي نظرة.

دخل «سويدان» و «محمد» إلى الاستراحة وما أن وصلا بجانب الغرفة أخرج «سويدان» مفتاحًا من جيبه ليفتح قفل باب الغرفة المغلقة دومًا، و«محمد» ينتظر اللحظة التي يكتشف فيها المستور وهو يُحدّث نفسه ماذا ياتُرى سأرى ومن المؤكد أن هناك شيئًا خطيرا يستدعي هذا الكتمان وهذا الإقفال.

المراسلات السرية

فتح «سويدان» الباب ودخل «محمد» خلفه، فالغرفة مظلمة وما أن تقدم بخطواته حتى استقبلته أجواء رطبه ممزوجة برائحة العفن، ورفع رأسه إلى السقف فإذا به مسقوف «بمرابيع وصفائح خشبيه» متخثره إثر أمطار الشتاء الماضي، وأما الجدران فلم تتزين بألوان الأصباغ بل بقيت «بتلييسها» اسمنتيًا، نظر إلى الأسفل وإذا بصناديق مبعثرة عبارة عن «كراتين» المياه الصحية والعصائر وكذلك أكياس النفايات السوداء وهي تملأ المكان يمنةً ويسرةً وهي مليئة بشيء ما، كما لفت انتباهه آلة كاتبة على طاولة صغيرة في الزاوية اليسرى.

الغرفة لا تتسع إلا لـ3 أشخاص، فوقف «محمد» جانبًا بالكاد لا يفهم ماذا يجري.

سويدان: ما تشاهده الآن كتب ومنشورات دعوية تتعلق بالعقيدة الصحيحة والمنهج النبوي الشريف.

محمد: وأين يتم توزيعها؟

سويدان: للمسلمين في الخارج.

محمد: وكيف ترسلونها؟

سويدان: عن طريق البريد المستعجل.

محمد: أليس ممنوعا أو على الأقل هناك مراقبة.

سويدان: هناك من نعرفه وهو يدير لنا الأمر.

توجَّس «محمد» قليلاً ولا زالت أسئلة تتوالد في ذهنه لكنه لم يستعجل بالبحث عن الإجابة لأن الأمور ستتضح له لاحقًا.

فتح «محمد» بعض تلك الكتيبات من داخل تلك الصناديق ووجد بداخل صفحاتها شعار «مكتب الدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات» التابع «لوزارة الشؤون الإسلامية» وأخرى كتيبات متنوعة لا تتعلق بمطبوعات المكتب ومؤلفوها من علماء الصحوة ومن غيرهم وبعض أعضاء هيئة كبار العلماء، لكنها مقننة. حينها عرف أن الطرود المرسلة تُطعم بمطبوعات «الوزارة» احترازًا.

أما المنشورات فكانت تُستَخلَص من كتابات «سويدان» وتطبع عبر الآلة الكاتبة التي تقبع في زاوية الغرفة ومن ثم يتم نسخها بكميات كبيرة عن طريق شاب صحوي يمتلك متجرًا لمكتبة علمية وبها قسم للطباعة والنسخ وبذلك تكون العملية الدعوية السرية متكاملة.

استمر «محمد» بالحضور إلى الاستراحة بشكل دائم واستوعب خلال ذلك الطُرُق المنهجية لوسيلة الدعوة السرية وكيف يتعامل مع الرسائل الواردة من الخارج عن طريق عنوان مكتب الدعوة و الإرشاد بالتعاون مع أحد الأشخاص هناك بأسلوب التحايل.

كلَّفه «سويدان» بفتح الرسائل الواردة وقراءتها بشكل يومي

والاطلاع على محتواها، ومن ثم جمع المظاريف لأجل الاحتفاظ بالعناوين والتي تأتي من جميع دول العالم، وتحديدًا دول إفريقيا وشرق آسيا وبلاد الشام وبعض الدول الأوربية، وذلك ليتسنى تسجيل تلك العناوين على المظاريف المرسلة.

كان «سويدان» يحدد كل أسبوع نوعًا من الكتيبات والمنشورات لإرسالها، وبعد مغرب كل يوم سبت و ثلاثاء يُكَلَّف أحد شباب الاستراحة بإيصال المظاريف إلى مكتب البريد الذي يتواجد به موظف منتمٍ للتيار الصحوي وبدوره يُمرر تلك المظاريف، حيث لا يتم تسليمها إلا له وفي وقت مناوبته فقط.

ذات يوم طلب «سويدان» من «محمد» مرافقة «بُدير» لكي يتسنى له التعرف على موظف البريد ودخلا سويًا إلى هناك وبالفعل شاهد الموظف وتعرَّف على عملية التسليم.

اعتاد «محمد» إيصال المظاريف بشكل دائم إلى مكتب البريد وذلك برفقة «خليل» كون «محمد» لا يمتلك سيارة.

ذات مرَّة حمل «محمد» و «خليل» 200 مظروفًا وتوَجَّها إلى «مكتب البريد» وترجَّل «محمد» لكي يُسلِّم المظاريف للموظف.

الموظف: هناك قرار جديد بخصوص المظاريف.

محمد: من أي ناحية؟

الموظف: طلبوا « قص صغير» في زاوية كل مظروف مشابه لمظاريفكم

محمد: يعني هالمرة ماراح تمشي بدون قص.

الموظف: يا ليت لكن ما أستطيع اقبلها بهذا الشكل للمصلحة.

محمد: أسأل «سويدان» وأشوف الأمر.

لم يكن في ذلك الوقت ما يسمى بالهواتف المحمولة فاضطر «محمد» و «خليل» العودة إلى الاستراحة ليخبرا «سويدان» بالجديد الطارئ، ووافق «سويدان» ولكن على مضض وخوف وطلب من «محمد» أن يستشير الموظف في احتمالية سلامة مرور المظاريف مستقبلاً من غير أي تدقيق.

في مكتب البريد أكَّدَ الموظف لـ«محمد» أن الأمر روتيني ولا يشكل أي خطر وتم تمريرها.

في وقت لاحق طلب «سويدان» من «محمد» التوجه إلى مَطْبَعة «الكروت» لطباعة نموذج عليه عنوان خُصّصَ للتراسل الدعوي وذلك لتوزيعه خِفْيَةً في مكة المكرمة.

الدعوة المكية

أتمَّ «محمد» مهمة طباعة الكروت وبعد ثلاثة أيام استلمها وكان شهر رمضان اقترب من المُنتَصف

سويدان: هل لكم نية بالعمرة هذا العام؟

بُدير: بالتأكيد.

سويدان: من سيبحث لنا عن سيارة كبيرة»؟

بُدير: سنبحث بين الشباب.

صالح: كم سنبقى في مكة؟

سويدان: أسبوع تقريبًا.

محمد: في أي تاريخ سنتحرك؟

سويدان: 9/24 والرجوع في 9/29.

قبل السفر بأسبوع جلب «صالح» السيارة الخاصة بعائلته وأدخلها في فناء الاستراحة استعدادًا للسفر.

قبل السفر بليلة استأذن «محمد» والده بالذهاب إلى العمرة، وبما أنه برفقة «خليل» لم يمتنع، وأخذ من والده مصروف السفر، كما

طلب من والدته أن تُعِد حاجيات السفر من «ملابس و بطانية وبعض التمر و مستلزمات القهوة».

بعد ظهر يوم السفر اجتمع الكل في الاستراحة وأُحضرت المستلزمات وتم وضع الأمتعة في سقف السيارة، وجهَّز «سويدان» أعدادًا من المظاريف الدعوية لكي يتم توزيعها في الحرم إضافة إلى الكروت التي تمت طباعتها.

قام الشباب بإزالة المقاعد الخلفية لكي يتسنى للجميع الجلوس بطريقة متقابلة أي كحلقة أشبه بالمستديرة.

بعد صلاة العصر انطلقوا وطلب «سويدان» من «محمد» استلام «القطة»، الصندوق المالي للرحلة، فكل شخص عليه دفع 800 ريال.

استغرق الطريق من «الزلفي» إلى «الطائف» 9 ساعات تقريبًا، ومع أذان المغرب أفطروا في السيارة ولم يتوقفوا إلى أن وصلوا إلى السيل الكبير في «الطائف»، وقبل الشروع بالإحرام ذهب «موسى» و «صالح» لإحضار السحور من المطعم القريب.

بعد تناول السحور أحرم الجميع وانطلقوا إلى «مكة المكرمة» وفي الطريق شرع الجميع بالتلبية.

«لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك».

عند وصولهم لـ«مكة المكرمة» تكفل «صالح» بالبحث عن الشقة

حيث استغرق البحث قرابة الساعة إلى أن وجد شيئًا مناسبًا لعدد الشباب الـ9 لكنها بمطبخ و دورة مياه مشتركة.

بعد إنزال الأمتعة توجه الجميع إلى الحرم لأداء العمرة وكان الوقت يقترب من أذان الفجر.

بعد صلاة الفجر اتجه الجميع إلى الغرفة للراحة والنوم:

سويدان: سنعمل جدولا مُقسَّما إلى فريقين كل يوم، وكل فريق مكوَّن من اثنين.

الفريق الأول عليه تجهيز السحور مرة «كبسة دجاج» ومره «معكرونة»، والفريق الثاني عليه الفطور وهو عبارة عن قهوة وتمر ولبن وفطاير جاهزة من مركز التسوق.

أما النوم فسيكون بعد صلاة الفجر أو بعد شروق الشمس للذي سيجلس في الحرم وأما الاستيقاظ قبل الظهر حتى يتم الاستعداد للصلاة، وبعد الظهر يكون الأمر اختياريا، أما صلاة العصر بالتأكيد ستكون في الحرم، وفي منتصف العصر نصعد للسطح ونفطر هناك ونجلس حتى بعد صلاة القيام.

أما ما يخص المظاريف والكروت فكل شخص سيحمل معه مجموعة منها وأن تكون بشكل غير ملفت للنظر ويتم توزيعها على الجاليات المسلمة فقط، لكن المهم هو الاحتياط خلال توزيعها بأن لا يرانا أحد من المباحث، أما أنت يا «محمد» عليك كل يوم تسليم مبلغ الفطور والسحور لكل فريق.

أخذ الكل بالتوجيهات وبدأ «محمد» بتحضير المظاريف والكروت ليقوم بتوزيعها داخل الحرم، وهناك شاهد مجموعة من الأفارقة فتوجه إليهم، ومن ثم ألقى التحية وجلس ورحب بهم وتحدَّث باللغة العربية الفصحى مع أحدهم:

محمد: السلام عليكم.

الإفريقي: وعليكم السلام.

محمد: كيف حالكم؟

الإفريقي: بخير ولله الحمد.

محمد: من أين أنتم؟

الإفريقي: من كينيا.

محمد: كيف حال الإسلام والمسلمين هناك؟

الإفريقي: الحمد لله ولكن ينقصنا الكثير.

محمد: الكثير من ماذا؟

الإفريقي: يوجد القليل من الدعاة والكتب الدينية وحتى المصاحف.

محمد: أنا سوف أفيدكم إن شاء لله، هذه كروت أتمنى أن تقوموا بتوزيعها على المسلمين هناك ففيها عنوان لمكتب الدعوة الذي سيقوم بتوزيع الكتب القيمة التي ستنفعكم في أمور دينكم ودنياكم.

الإفريقي: ما شاء الله جميل، وهل سترسلون لنا المصاحف؟

محمد: إن شاء الله.

لحظات وإذا برجل مرَّ بالجوار وسحب الكروت من أيدي الأفارقة.

الرجل: إيش هذا؟ عنوان إيش؟

محمد: مكتب الدعوة.

الرجل: أي مكتب الدعوة؟

محمد: في «الزلفي».

الرجل: معك تصريح؟

محمد: تصريح عشان إيش؟

الرجل: تصريح توزيعها.

محمد: لا ما معي بس العنوان واضح.

الرجل: تفضل معي.

محمد: وين؟

الرجل: معك إثباتك؟

محمد: معي.

الرجل: أعطني إياه

محمد: تفضل.

الرجل: وأنت تفضل معي.

رافق «محمد» الرجل وتوجه به إلى مكتب شرطة الحرم ودخل إلى مكتب الضباط المناوب:

الضابط: ليش توزع ها المنشورات؟

محمد: هذي كروت مو منشورات.

الضابط: ما تفرق ليش طيب؟

محمد: للدعوة.

الضابط: معك تصريح؟

محمد: من يعطيني التصريح.

الضابط: مكتب الدعوة اللي أنت تقول عنه.

محمد: ما أعتقد إنه يحتاج تصريح لكروت.

الضابط: بالعكس يمكن يكون العنوان يوزع منشورات ممنوعة.

محمد: ما في شي ممنوع كل ما عندنا يتعلق بالعقيدة والفقه.

الضابط: إذا عليك سوابق الله يعينك وإذا ما عندك ما يحتاج أوقع لك على تعهد لكن أنت وضميرك وبحكم الشهر الكريم ووجودنا داخل الحرم بخليك تروح.

محمد: جزاك الله خير.

وبالفعل لم يجدوا على «محمد» سوابق وأطلق سراحه، واتجه إلى مكان تجمع الشباب في سطح الحرم، وتحدَّث إلى «سويدان» حول ماجرى معه.

سويدان: الحمدلله على السلامة عسى ماعملوا بك شيئًا؟

محمد: لا الحمدلله ولم يوقعوني على أي شي.

سويدان: قلت لكم احترسوا.

محمد: أعتقد أن رجل المباحث مر بجانبنا على غفلة.

سويدان: انتبهوا ياشباب في المرات القادمة.

عاد «محمد» إلى التوزيع من جديد ولكن بحذر واحتراز أكثر.

أثناء دعاء القنوت كان إمام الحرم «عبدالرحمن السديس» يدعو للملك وولي عهده ونائبه الثاني بالتوفيق والصلاح، وفي هذه اللحظة يُنزل «محمد» يده ولا يُؤَمّن بالدعاء لأن «سويدان» علّمه ذلك «لا دعاء لطاغية».

أكمل الجميع الأسبوع وقرروا العودة، وفي منتصف الطريق شَعرَ «صالح» بالإرهاق وكان أغلبية الشباب في سبات عميق، فما كان من «محمد» إلا أن يستلم القيادة، فهو قد تدرب عليها سابقًا.

كان «محمد» يشعر بخجل من أقرانه كونه لا يتملك سيارة فحاول مرارًا أن يتجرأ ويطلب من والده استخراج رخصة قيادة.

الرخصة والسيارة

قبل استخراج الرخصة بمدة طويلة كان «محمد» قد تعلم القيادة عن طريق والده الذي يتيح له بين الفينة والأخرى استعمال السيارة في المزرعة، وأيضًا عن طريق «راجندار».

والد محمد: بطلع لك رخصة.

محمد: متى.

والد محمد: بكره إن شاء اللّٰه بس جهز لي صور لك.

محمد: إن شاء اللّٰه.

في اليوم التالي استلم «محمد» الرخصة وطلب منه والده أن يتقاسم السيارة «الددسن» مع «راجندار» لحين شراء سيارة جديدة.

قبل أن يستقل السيارة وجد في منزلهم شريطًا إسلاميًا لـ«سلمان الجبيلان» فجلبه ثم اتجه إلى الاستراحة وهو يستمع له حيث كان فيه من الاستطرادات الفكاهية الشيء الكثير، وعند الاستراحة كان «سويدان» في سيارته يَهمُّ بالنزول فما أن توقف «محمد» أقبل «سويدان» وهو يبتسم ويبارك، ومن ثم ركب معه في السيارة متجهين إلى إحدى المكتبات.

سويدان: من أين لك شريط «الجبيلان»؟

محمد: وجدته في المنزل.

سويدان: لا أنصحك بالاستماع لهذا «التبليغي».

محمد: ماذا يعني تبليغي؟

جماعة التبليغ

وضَّح «سويدان» لـ«محمد» أن عقيدة «جماعة التبليغ» تعتمد في باطنها على نهج وسائل وطرق ملتوية، ظاهرها التزهد والوعظ وباطنها الفرقة وعقد البيعات لأمراء الجماعة وتربية الشباب على نزع يد الطاعة من ولاة أمور المسلمين والجولات وإقامة البيانات بعد «الخروج» أيامًا وشهورًا إلى عدة بلدان كـ«الكويت وباكستان والهند» وغيرها.

فقاطعه «محمد» سائلاً عن عنايتهم بالعقيدة والتوحيد، فذكر له «سويدان» رأي الشيخ «عبدالعزيز بن باز» مفتي السعودية حينها أنه ذكر في كتاب «كشف الستار عما تحمله بعض الجماعات من أخطار تقصيرهم في طلب العقيدة ومسائل التوحيد وضعف تعاطيهم معها.

ثم استطرد «سويدان» بأنهم يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، معتقدين بأنهم الآن في مرحلة إيجاد المناخ الملائم للحياة الإسلامية وكذلك بحجة أن هذا يُنفِّر الناس عنهم، حيث وصفها بعض الدعاة السلفيين بأن دعوتهم قاصرة وباطلة.

كما أنهم في مجالسهم يطعنون في العلماء، وزيادة على ذلك لا يطلبون العلم، وأيضًا لا يتكلمون في السياسة، وينهون أفراد جماعتهم عن الخوض فيها وينتقدون كل من تحدث عنها.

تلك الجماعة في «السعودية» بدأت تظهر على الساحة أكثر بعد التضييق على دعاة الصحوة ولعل أبرز رموزها «سليمان الجبيلان» و «صالح الحمودي» وبدَورِه انتشر فِكرُ هذا التيار بطريقتهم المتَّبعة، وذهب خلفهما الكثير من المتعاطفين والغير محصنين بأحداث الواقع من أصحاب الموقف المصدوم من دعاة الصحوة، والباحثين عن الالتزام المعتدل معتقدين أنه الطريق الصحيح على منهج أهل السنة والجماعة، غافلين عن العقيدة الباطنية التي يؤمن بها التيار.

نشأ هذا التيار في «الهند» العام 1926 على يد «محمد إلياس الكاندهلوي» وقد انتشرت الجماعة سريعا في «الهند» ثم في «باكستان» و«بنغلاديش»، وانتقلت إلى العالم الإسلامي والعربي.

لكنَّ بدايتها الأولى في السعودية كانت عام 1938 عندما سافر «محمد إلياس الكاندهلوي» إلى «السعودية» وعرض منهاج دعوته على الملك «عبدالعزيز»، طالبا منه السماح للجماعة بممارسة نشاطها الدعوي في بلاده، وقد استجاب الملك لهذا الطلب، وبعد وفاة الشيخ «محمد إلياس» في «السعودية»عام 1944 أعاد قادة التبليغ منهاج دعوتهم على مفتي السعودية حينها الشيخ«محمد بن إبراهيم آل الشيخ» وقام هو بدوره بتزكيتهم.

عندها قدم «سويدان» نصيحة لـ«محمد» تعتمد الطريقة الصحيحة لأسلوب الدعوة، كما وجب عليه الآن خوض غمارها.

كما نصحه بالاشتراك في مجلة «البيان» الشهرية والتي تحوي مقالات تخدم التيار الصحوي السروري، وأكدّ له فتحها الطريق أمام طالب العلم الصحيح لمعرفة المنهج القويم وتوضيح ما يدور في المحيط بما يخدم التيار الصحوي والسلفي، فهذه المجلة يرأس تحريرها الآن «أحمد الصويان» وهو أحد الموصومين بالمرجعية السرورية.

هِجَر البدو

صدر قرار وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بمنع المتطوعين من «إلقاء الكلمات الوعظية» في الجوامع والمساجد إلا بتصريح رسمي، حيث كان هذا القرار متزامنا بالتوقيت مع إيقاف مشايخ الدعوة الصحوية.

القرار كان صدمة للمتطوعين وإحراجًا لأئمة المساجد في نفس الوقت كون أغلبية أئمة المساجد متعاطفين مع أي منهج دعوي وهناك من هم أتباع للفكر الصحوي.

بحث «سويدان» عن مخرج لهذا الموقف كونه أحد المتطوعين الغير مصرح لهم بإلقاء الكلمات في مساجد المدينة.

ذات يوم اجتمع «سويدان» بالشباب في«الاستراحة» وقرر أن يكون الوعظ أسبوعيا في يومي «الخميس والجمعة» خارج المدينة، عبر القرى والهجر النائية، لأن المراقبة من قِبَل رجال المباحث أقل تركيز، كما أن أهل البادية أصحاب قلوب متعطشة.

ذكر «سويدان» في الاجتماع أن قرار الوزارة جائر ولا يجوز، وأن الدولة تُضيّق على الدعاة والمسلمين وهذا ليس بمستغرب وهو

ديدنها مؤخرًا، وتستمر في سحق من يقف في وجهها، وأن القائمين على الوزارة ما هُم إلا أعداء للصحوة وأذناب للدولة.

اتفق الجميع أن يكون الخميس القادم أول تجربة في «إلقاء الكلمات» بمساجد القرى وأن ينقسم الشباب إلى فريقين، وتم تحديد أسماء الهجر المقصودة والتي تقع شرق المدينة.

بعد صلاة الظهر من يوم الخميس تجمَّع الشباب في الاستراحة وأمرهم «سويدان» بأخذ مجموعة من الكتيبات والمنشورات لكي يتم توزيعها على جماعة المساجد هناك، فكل سيارة أخذت 200 مظروف.

ركب «سويدان» بسيارة «محمد» وكان بصحبتهم «خليل»، وأما السيارة الأخرى فبها «صالح» و«موسى».

بدأ «سويدان» يُزوِّدُ «محمد» بالتعليمات حول الأمور التي لابد أن يتطرق لها في «إلقاء الكلمات»، وأن يبتعد في أول الأمر عن المسائل المعقدة في الفقه والعقيدة، ولم يُوَجِّه الخطاب نفسه إلى خليل، حيث لم تكن لديه القدرة على أداء تلك المُهَمة.

سويدان: غالبًا يكثر عند الأعراب البدع والتعلق بالأشياء وينقصهم الفهم بالعقيدة، أضف إلى ذلك التساهل في بعض المعاصي والمآخذ الشرعية، لكن كن حذرًا ولا تحاول التطرق إلى مسائل سياسية أو اللوم الذاتي للحكومة فالأعراب أشد الناس ولاء.

محمد: بأي شي أبدأ؟

سويدان: عليك بالوعظ العاطفي كـ«أثر الذوب على القلوب والحياة وكذلك تذكر هادم اللذات «الموت» فالأعراب أكثر الناس خوفًا منه.

وصل الجميع عند منطقة تَجَمُّع «الهِجر» ووقفوا عند «محطة البنزين» وحدد «سويدان» المساجد المستهدفة، ووزع المطاريف الدعوية بين السيارتين واتفق معهم أن يكون التذكير بعد صلاتي العصر والمغرب وأن يكون اللقاء بعد صلاة العشاء هنا عند «محطة البنزين».

بعض الهجر صغيرة ويكون بها مسجدٌ واحدٌ والبعض الآخر فيها مسجدان.

قُبَيل أذان العصر طلب «سويدان» من الفريقين الانتشار وكانت «هجرة مِشْرفَة» من نصيب «سويدان» بعد صلاة العصر وأما هجرة «خِنيفسان» من نصيب «محمد» بعد صلاة المغرب.

وصلوا إلى مسجد «مِشْرفَة» وأدوا تحية المسجد بجانب المؤذن وبعد الانتهاء من ركعتي السنة الراتبة التفت «سويدان» على المؤذن:

سويدان: السلام عليكم.

المؤذن: عليكم السلام.

سويدان: الإمام موجود؟

المؤذن: الله الله عانه اللي جنبي.

سويدان: السلام عليكم ياشيخ.

الإمام: عليكم السلام.

سويدان: إحنا طلاب علم ولنا صلة بوزارة الشؤون الإسلامية وجايين نذكَّر المسلمين بالله بعد صلاة العصر والمغرب إن شاء لله.

الإمام: الله يحييكم وأنت ستصلي بنا.

سويدان: لا فيك الخير والبركة.

الإمام: علي الطلاق ما يصلي غيرك.

سويدان: مايجوز ياشيخ هالحلف.

الإمام: هههه أجل صل فينا وانصحنا.

سويدان: إن شاء الله هههه.

أمر الإمام المؤذن بإقامة الصلاة وتقدم «سويدان» وأَمَّ المُصلِّين، وبعد الصلاة وقف أمام مكبر الصوت وبدأ بالحمد والثناء على الله والصلاة على رسول الله، وتكلم عن بعض المفردات التي يقع فيها كثير من المسلمين والتي قد تخرجهم من الملة أو بها من الشركيات التي تُخِل بعقيدتهم.

وفي ثنايا حديثه تطرق إلى مسألة الاعتماد على الله في كل حاجات المسلمين وأن تعلق البشر بغير الله من الشرك في المحبة، وأن فيه من الخطر العظيم على إيمان المسلم فقد قال الله تعالى في كتابة:

(وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا). وقال في آية أخرى: (وَاتَّخَذُوا مِن

دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ × لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ).

وذكر «سويدان» حديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار).

ثم ضرب مثالاً على شرك المحبة :

أيها المسلمون الحياة تتطلب العمل وتتطلب الثقة بالله وتتطلب السعي خلف الرزق لكن ليس الحكام ولا الأمير ولا الوزير ولا المدير بيده رزقك، فتعلقك بهم في أمور دنياك ورجاءك منهم لقمة العيش وتنفيذ كل الأوامر لأجل مرضاتهم لهو من مفسدات القلب والتي ذكرها ابن القيم رحمه الله وأورد منها «التعلق بغير الله».

بعد انتهاء «سويدان» من كلمته قام جماعة المسجد وصافحوه وقبلوا رأسه.

الإمام: يامشايخ طالب منكم تتقهوون عندي وبحضور جماعة المسجد.

سويدان: أبشر بنتقهوى عندكم ونسولف معكم إلى قبيل أذان المغرب حتى يسعفنا الوقت ونغادركم لجيرانكم «خِنيفسان».

الإمام: الله يجزاكم خير بس العشاء عندنا.

سويدان: جزاكم الله خير ما يمدينا ورانا خط وعندنا مشاغل.

انتقل الجميع إلى منزل إمام المسجد

المؤذن: قبل كان يجينا مشايخ مثلكم لكن ماعاد شفناهم.

سويدان: يمكن انشغلوا.

الإمام: ما كان يردهم عنًّا شي لكن يقولون الدولة وقفتهم.

سويدان: ممكن زوَّدوا المكيال شوي

المؤذن: ماخبرنا في تذكيرهم «عِلمٍ ما هو زين».

خلال تلك الجلسة خصّصها جماعة المسجد للفتاوى فكان «سويدان» يجيب عليها، وقبل المغادرة قام «محمد» بتوزيع المظاريف الدعوية عليهم.

قبل آذان المغرب استأذنوا من إمام المسجد ليدركوا وقت صلاة المغرب في «خِنيفسان»، وانطلقوا متجهين إليها، فمساحتها أكبر من «مِشُرفَة» حيث بها مسجدان.

أنـزل «محمد» «سويدان» عند المسجد الأول واتفقا بعد إلقاء الكلمات أن لا يرتبطا بأي أحد من أهل «الهجرة» حتى لا يتأخروا على بقية الشباب.

توجه «محمد» وبصحبته «خليل» إلى المسجد الثاني وفي الداخل يَرقُب «محمد» المؤذن وهو ينادي لصلاة المغرب و ينتظره أن يَفرَغ.

محمد: السلام عليكم.

المؤذن: عليكم السلام.

محمد: كيف الحال.

المؤذن: الحمدلله.

محمد: أنامن مكتب الدعوة في «الزلفي».

المؤذن: الله يحييك.

محمد: الله يسلمك جاي ألقي كلمة بعد الصلاة.

المؤذن: جزاك الله خيرا.

محمد: الإمام موجود استأذن منه؟

المؤذن: الإمام مسافر لعلك تصلي فينا.

محمد: إن شاء الله.

حضر جماعة المسجد وأقام المؤذن للصلاة وتقدَّم بهم «محمد»، وما أن فرغ من الصلاة كانت الانطلاقة الأولى لإلقاء الكلمة:

محمد: الحمد لله وكفى والعاقبة لمن اهتدى والخسارة لمن بغى والصلاة على النبي الأوحَدَ محمد بن عبدالله المُقتدى عليه وعلى الأنبياء والرسل أتم الصلاة الأسلَمَ، أما بعد:

إخوتي يقول الله تعالى: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ).

ألهتنا الدنيا وملذاتها نتبع هذا ونتمنى ذاك وقلوبنا متعلقة بالدنيا وجحيمها ونغفل عن الآخرة ونعيمها.

لن ينفعنا يوم القيامة ملك أومسؤول ولا والدان وأشقاء إلا الملك الأول الذي لا بعده شيء سبحانه.

جوارحك وقلبك ونفسك وعقلك مسؤولون يوم القيامة عنك فما عساك أن تتوقع إجابتهم؟ فهل هم معك أم ضدك؟

لا تتحالف مع البشر ضد البشر ولا تكن وصيًا على أحد، وإن دعاك مخلوق لمعصية الخالق فلا تجبه، وإن أمرك بأذية العباد الصالحين فلا تسمع له.

يقول عز من قائل سبحانه: (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا).

إن الأذى اليوم لا يُعد ولا يُحصى، إلى الله نشكو ذلك الأذى من الناس في توجهاتهم وآرائهم وخاصة فيما لا يرضي الله وتجد هناك من يعترض أو يسد الطريق في الوجه، وقد قال الرسول صلوات ربي وسلامه عليه: (من آذى مؤمنًا فقد آذاني).

أيها المسلمون خير الكلام ما قل ودل وأصدقه ما نبع من القلب إلى القلب.

اللهم أصلح قلوبنا ونوايانا وأعمالنا وأحسن خواتيمنا وصلى وسلم على محمد نبينا.

قام جماعة المسجد يصافحون «محمد» وحاولوا أن يدعوه إلى القهوة والعشاء فذلك عادة «البدو» «الكرمُ الجم»، إلا أنه رفض ذلك وحاول التخلص من إلحاحهم.

استقل «محمد» و«خليل» السيارة متجهيّن إلى المسجد الآخر حيث يوجد «سويدان» وكان لا يزال يلقي كلمته.

جلسا في السيارة ينتظرانه و«محمد» يستذكر كلمته التي ألقاها لأول مرة ومن غير ارتباك، وكيف أتته الجُرأة في اختيار الموضوع.

خرج «سويدان» من المسجد وانطلقوا إلى مقر الشباب عند «محطة البنزين» بالقرب من «هِجرة مشرفة» وفي الطريق سأل «سويدان» عن ماهية كلمة «محمد» فأخبره بها فأُعجِبَ بالطرح.

وصلوا إلى «المحطة» ولم يجدوا الشباب في انتظارهم، فانتظروا طويلاً واستبطأهم «سويدان» وقرروا الذهاب إلى مكان هجرتهم، وعند اقترابهم فإذا بالشباب يخرجون منها.

سويدان: ما الذي أخّركم؟

صالح: إمام المسجد الغبي.

سويدان: ما به؟

صالح: رفض أن نقوم بإلقاء الكلمة.

سويدان: العصر والمغرب؟

صالح: العصر تكلمنا في مسجد آخر لكن توجهنا إلى المسجد الأخير ورفض الإمام وحاولنا إقناعه لكنه طلب التصريح، فرفعت صوتي عليه وطال الكلام وتدخل بعض جماعة المسجد.

انطلق الجميع عائدين إلى «المدينة» وكان «محمد» يستشعر الاستفادة من طلبة للعلم على يد «سويدان» وقرر مواصلة الطلب أكثر.

ذات جمعة خرجوا إلى «هِجر» أبعد مسافة من التي قبلها، وفي إحداها والتي يطلق عليها «أم صده» تكلم «محمد» بعد صلاة الجمعة»،

وكان يعرف سكانها منذ صغره عندما كان يرافق والده لرحلات «القنص» فتوقع أنهم لن يعرفوه لكن هناك من عرفه ولم يتحدَّث إلى «محمد» وعاد الجميع إلى المدينة بعد يوم دعوي استمر إلى صلاة العشاء.

وبعد أيام

والد محمد: أنت «تلقي كلمات» في المساجد؟

محمد: من يقوله؟

والد محمد: جاني العلم، عندك تصريح؟ ماتدري وش يسوون في اللي ماعنده؟

محمد: وش بيسوون ؟ بيسجنوني؟

والد محمد: إيه يغيبون شمسك.

لم يكترث «محمد» لكلام والده وواصل إلقاء الكلمات ولكن في هِجرٍ نائية أكثر.

أسفل الكعبين في النار

خلال مجالسة «محمد» لـ«سويدان» وبشكل مستمر كان يأمره بتقصير ثيابه ويذكره بحديث النبي صلى الله عليه وسلم (ما أسفل من الكعبين من الإزار في النار)، وأن هذا هو الخيلاء رغم أن ثوب«محمد» لم يكن من النوع الذي يلامس الأرض.

فتح «محمد» خزانة ملابسه وأخرج كل ثيابه وبدأ يفرزها وحتى «السراويل».

أخذ ثيابه وانطلق إلى الخياط وطلب منه أن يُقصّره، ويأخذ المقاس من فوق الكعبين بأربعة أصابع وكذلك السراويل الطويلة طلب من الخياط أن يقوم بتقصيرها أيضًا أقصر من الثياب.

حتى نوع الشماغ وطريقة اللبس فكان «محمد» يستلهم وجهة نظر «سويدان» بأنه لابد على المسلم أن لا يتكلف.

استغرب والد محمد التغير المفاجئ على ابنه وأبدى ملاحظته وهو أن السنة حدّها الكعبان، وليس شرطًا أن يكون قصيرًا جدًا، لكن لم يأخذ «محمد» بوجهة نظر والده وأصبحت كل ملابسه الجديدة على تلك الشاكلة.

زهيد

كانت علاقة «سويدان» ببعض الشخصيات المتدينة متينة جدًا وخاصة المنتمين لبعض التيارات المتشددة، وكان على رأسهم رجل صاحب علم وتقشف يقال له «زهيد».

ذات يوم زار «زهيد» شباب «الاستراحة»، وفي ذاك اليوم كانت المرة الأولى التي يتعرف «محمد» على تلك الشخصية الغريبة، فـ«زهيد» يتصف بالشدة الملحوظة وكثير التذمر، وبه من الخشونة ما يستدعي مجافاته، وهو ينهج مبدأ الزهد في الحياة، ويحمل من العلم الكثير، ويحفظ كُتُب الصحاح الستة بأسانيدها ورجالها ومن المستحيل أن يتحرك بدون كتاب، يقرأ في كل وقت وفي كل مكان، ودائما يصحبه ابنه الصغير ذو الثامنة «صفوان».

جعل «محمد» يتأمل في حديث «زهيد» ففيه من الإقناع ما يستدعي دوام الاستماع.

تحدَّث عن الكبت الذي تعيشه البلاد حينها والتضييق على العلماء، وأن ذلك سيجر إلى ويلات ستدفع إلى الانفجار الذي ولَّده

ذلك الضغط، وأنه لابد من مواجهة ذلك بالإصرار على دعوة الناس وحمايتهم مما يراد لهم وهم في غنى عنه.

كان «زهيد» يتحدث بثقة مطلقة وكأنه من يُدبّر لذلك السيناريو المحتمل المؤدي إلى الانفجار.

حاول «زهيد» استمالة «محمد» بالحديث فقد سمع عنه الكثير عن طريق «سويدان».

زهيد: أين حصلت الفائدة العظيمة لديك.. أيام المراكز الصيفية وإلا مع الشيخ «سويدان»؟

محمد: أكيد مع الشيخ «سويدان».

تطرق «زهيد» إلى السلبيات التي ينهجها أعضاء المركز وكيف يعظمون سيد قطب ولعلهم لا ينتبهون لما ما يريد في كتبه، فلديه مآخذ عقدية خطيرة فيما يتعلق بصفات الله والاستواء، وحديثه عن خلق القرآن وغيرها الكثير.

طلب من «محمد» زيارته في منزله الكائن على أطراف المدينة كونه يرى أن مجاورة الفسقة تجلب الإثم وتُبْعِدُ عن مبدأ التقشف، ويُحبذ الاختلاء بعيدًا مع الحياة الطبيعية بدون ملامح المدنيّة والحداثة.

أخبره عن جلسة كل ثلاثاء والتي يجتمع فيها طلاب العلم في منزله وتمنى زيارته ذلك الأسبوع.

مجلس التقشف

يوم الثلاثاء طلب «محمد» من «سويدان» أن يرافقه إلى منزل «زهيد».

محمد: أريد أن أعرف أكثر عن شخصية «زهيد».

سويدان: رجل صاحب تقشف وورع، ويتجنب السلام ومصافحة الناس وعلته في ذلك أنهم « أصحاب معاصي» ولأنهم موظفون بالحكومة لأنه يرى الريبة فيها، وأن الدولة جائرة والحاكم طاغية، كما يرى أن وقته ليس هذا الزمن لأنه فيه الفتن والمحن، وأن دوره أصبح في إصلاح الأمة وإقامة دولة إسلامية.

محمد: وهل هو مراقب؟

سويدان: مراقبة تحركاته الدعوية والفكرية، لكن ليس بشكل دائم فلأكثر من مرة استدعته المباحث.

وصلا إلى المنطقة التي يقطنها «زهيد»، فإذا هناك خمسة بيوت له ولأتباعه الذين ابتغوا العزلة، فلا إسفلت ولا إنارة طرق، والبيوت ليست بـ«فلل» بل هي بيوت شعبية مبنية من الطوب بدون «أصباغ»، والكهرباء عبارة عن مواطير تُعبَأ بالديزل لأن الفواتير من الضرائب المحرمة.

اقتربا من الباب وإذا به مفتوح وسمعا «زهيد» يخطب في الحاضرين.

طرقا الباب واستقبلهما «صفوان» وطلب منهما الدخول وإذا بالجميع يجلسون في «الدكة» بمحيط حديقة المنزل حيث كان «زهيد» متحمسا بالحديث.

زهيد: إلى متى السكوت وغض الطرف عن المستهزئين بالدين وبأهله، إن أولئك المرتدين الذين يريدون لهذه الديار التغريب وتحرير المرأة وعلى رأسهم أبطال مسلسل «طاش ماطاش»، وذلك الآخر «تركي الحمد» فهو أعظمهم استهزاء بالدين وسبًّا لله ورسوله، فمن استهزأ بالدين وبثوابه وعقابه فقد خرج عن ملة الإسلام.

في تلك الجلسة كان هناك مجموعة من الشباب قدموا من «الرياض» بدأوا بالأسئلة الموجهة إلى «زهيد» حول رأيه عن الطُرق البديلة في الدعوة إلى الله، وهل يجوز لهم المجابهة في حال تم التضييق عليهم وهل ذلك يُعتبر خروجًا عن طاعة ولي الأمر أم أن الخروج عليه هو الواجب، وماذا عن أولئك العسكريين فهل هم تحت طائلة الحاكم حيث هم من يقومون بالمضايقة؟

كان رأي «زهيد» في تلك المسألة واضحا حيث وضَّح لهم بأن الدُعاة يُحَارَبُونَ كونهم يدعون إلى عبادة الله ونبذ الشرك وأهله والتحذير من الطواغيت، فلا حل مع أولئك إلا بالصمود على الحق وعدم اللين أو الاستكانة، فكل ما يصيبك منهم إنما هو بلاء تؤجر

عليه، وما يفعله الحاكم الآن إنما هو محاربة لله ورسوله حتى وإن تستر بغطاء تطبيق الشريعة الإسلامية فهنا لا يُعتبر وليًا للأمر ولا تجب طاعته.

محمد: الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من رأى من أميره شيئا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يدا من طاعة فإنه من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية) إذًا فإن الخروج على الحاكم لا يكون إلا بوجود الكفر البواح.

زهيد: ماذا تقول عمن اتخذ من الكفار والمشركين «الأمريكان» أربابًا يخافهم ويطبق ما يُملونه عليه إلا أن يكون منهم ولهم قال تعالى: (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) فأولئك الطواغيت يدعون الناس إلى عبادتهم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (على المرء السمع والطاعة في المنشط والمكره وفيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية الله فإن أمر بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة).

محمد: هل يعني ذلك أن من وقف تحت إمرتهم من رجال الأمن في عداد الطواغيت ؟

زهيد: أما من يسمون بـ«الشُرَط» وما ينفذونه من تطبيق الأوامر فما هي إلا الطاعة المطلقة فضربهم للتحيات العسكرية ما هو إلا من التحيات الشركية فقد قال الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله: (وضع اليد على الجبة مثل السجود ويدخل في الشرك). إذًا فهم يقومون بحماية الشرك وأهله فهنا لا طاعة لهم، إذًا فالمسلمون المجاهدون

يـرون عـدم المساواة بين الإنسانية، بل يـرون الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وأنه يجب التمييز في ذلك، لذا فيجب محبة المسلمين وإيوائهم طالما أنهم يقفون في وجه الطغاة.

بعد تلك المناظرة اقشعر جلد «محمد» ووقف شعر رأسه، فمع كل كلمة كان يقولها «زهيد» كان «محمد» ينظر في وجه «سويدان» ووجوه الحاضرين.

في الجلسة تحدث «سويدان» إلى «مسعود» القادم من «الرياض» والمُقيم في حي «السويدي» حول الدعوة في «الرياض» ومساحة التعاطي معها هناك، وعن ماهية المشاريع الدعوية التي يقومون بها.

أخبره «مسعود» بأن هناك مجموعة من شباب «الرياض أغلبهم من سكان حي «السويدي» وبعض الأحياء الأخرى يقومون بالاجتماع كل أربعاء في منزل أحد طلاب العلم يصل عددهم الثلاثين شخصا، ومن ثم يُقام لمدة ساعة درس خفيف ومن بعدها ينطلق الشباب على مجموعات متفرقة تجوب مجالس الأرصفة جنوب الرياض، ويقومون بالجلوس مع الشباب الضال والمقصر وتوزيع بعض المنشورات والكتيبات والأشرطة.

رأى «سويدان» أن شباب الاستراحة يحتاجون إلى التدريب على هذا النوع من الدعوة وطلب «مسعود» من «سويدان» زيارتهم في الرياض الأسبوع القادم ومشاركتهم في الأجر.

شباب السويدي

الجهة الجنوبية من مدينة الرياض تُعتبر حاضنة التدين ومنها نَبَعَ التشدد الغير منضبط والتي تُعتبر الرحم الثاني من ولادة التطرف ولا زالت تُفرخ.

حي «السويدي» و «ظهرة البديعة» وضواحيها هي الأحياء التي يستوطن فيها كل أطياف المجتمع السعودي، وخاصة من منطقة «القصيم» و«بريدة» بشكل خاص، فأثَّروا فيها أيما تأثير فهي منبع المكتبات الطلابية التي يشرف عليها أولئك المتدينون والمتشددين والمتطرفين، وفي تلك الجهة يكثر فيها طلب العلم وإقامة المحاضرات والدروس العلمية. كما أن حي «السلام» شرق الرياض وبعض الأحياء في شمالها تضم أمثال أولئك أيضًا لكن الإلهام من جنوبها أكثر.

فأول رصاصة أُطلقت للقضاء على الإرهاب في «السعودية» كانت في حي «السويدي» ضد إحدى الخلايا الإرهابية ولذلك لقب بحي الفلوجة وشهد العديد من المواجهات.

في يوم الأربعاء انطلق «محمد» بسيارته إلى الرياض وبصحبته

«سويدان» و «موسى» و «خليل» و «صالح» متجهين إلى شباب السويدي حيث تعرَّف «سويدان» على الشاب «مسعود» في منزل «زهيد».

بالقرب من منزل «مسعود» كانت السيارات مكتظة، حتى أن الحي غص من عددها حول المنزل.

تواجد ما يقرب من الأربعين شابًا داخل المنزل وهم متكدسون في الممر بين المجلس والمدخل.

جلس «محمد» وبقية الشباب الذين معه بين أولئك الجموع، حيث كان الاستماع إلى أحد طلاب العلم الذي تناول فضل الدعوة إلى الله وطرق التعامل مع المخالفين، وكيفية الاحتراز من رجال الشرطة أو حتى وقت الاشتباه من رجال المباحث.

توزع الجميع على عشر مجموعات كل مجموعة تضم أربعة شباب في السيارة الواحدة.

في تمام الساعة الحادية عشر مساء توجهت المجموعات إلى مقر تجمع شباب الرياض في أرصفة الجهة الجنوبية من المدينة، وتعمد «سويدان» أن لا يكون «محمد» والبقية» في مجموعة واحدة وذلك لصقلهم.

كان «محمد» مع مجموعة يقودها «فلاح» وعند الوصول إلى المقر توقفوا عند مجموعة من الشباب يلعبون البلوت حيث صوت الأغاني مرتفع.

نزل «فلاح» والمجموعة وطلب من «محمد» الاستماع جيدا

لأسلوب النُصح حتى يتسنى له أثناء زيارة المجموعة الأخرى البدء في النصح.

أقبلوا على شباب الجلسة وقام أحد الجالسين واتجه لسيارتهم وأغلق المسجل.

فلاح: السلام عليكم شباب.

شاب الرصيف: عليكم السلام.

فلاح: كيف حالكم.

شاب الرصيف: الحمدلله.

فلاح: إذا تسمحون نبي نجلس معكم شوي وما راح نطوّل.

شاب الرصيف: الله يحييكم.

فلاح: جيناكم ياشباب حتى نكون في إطار ما ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده).

شاب الرصيف: بس أحنا في الشارع مو في المسجد.

فلاح: تدارس الذكر والقرآن ليس في المسجد فقط بل في كل مكان وهذا الحديث ليس على إطلاقه.

شاب الرصيف: طيب ما قلنا شي، لكن هل تتوقع أن هذا المكان وفي هذا الوقت من الليل مناسب؟ وخاصة إننا نبحث عن راحة النفس بعد تعب النهار.

فلاح: وهل في تعلم أمور دينك وقت ومكان؟

شاب الرصيف: النفس يا شيخ تواقة بإرادتها مو بالفرض والإجبار.

فلاح: أنت تتعالى على الخير وطلب الأجر؟

شاب الرصيف: الأجر ياشيخ أعرف وقته ومكانه.

فلاح: أنت لا تعرف غير التقاعس وتطبق ما يمليه عليك الشيطان فتعوذ منه

شاب الرصيف: متعوذ منه قبل لا اشوف وجهك.

فلاح: ما هذا الأسلوب؟ أنت مو متربي ولازم أحد يعلمك كيف تقابل الناس الأكثر منك علمًا وقدرًا.

شاب الرصيف: ليش معصب ياشيخ ؟ يعني غضبت لله وإلاّ لنفسك؟

حاول البعض تهدئة الأمر المحتدم وأخذ «فلاح» أوراق البلوت ومزقها ثم قام باتجاه إلى سيارة شباب الرصيف وركبها، وأخرج شريط «الأغاني» وأتلفه، ثم تبعه ذلك الشاب وحاول ردع «فلاح»، فقام شاب آخر من مجموعتنا ليقف في صف «فلاح» الذي لم يكتفِ بذلك بل بدأ يفتش في السيارة على باقي الأشرطة ليأخذها، لكن حصل ما لم يكن في الحسبان وتشابك الجميع في معركة كلامية ويدوية، ونشب عراك جماعي وكان الشاب صاحب السيارة يقول: والله أنك لم تغضب لله بل لنفسك؟

أصيب «محمد» في رأسه جرَّاء العراك ونزف كثيرًا أما «فلاح» فأصيب ببعض الكدمات وأيضًا أحد رفاقهم.

تفادى شباب الدعوة وصول أي جهة أمنية وقرروا الانسحاب وانتهت المعركة بلا فائز واتجه شباب الدعوة إلى مستوصف قريب وتم قطب جرح «محمد» ولم يُكمَل مشوار النصيحة وعادوا إلى نقطة الانطلاق.

في طريق العودة إلى منزل «مسعود» ذكر«فلاح» أن هناك شبابًا لديهم كِبر على تَقبُّل النصيحة، وأن التعامل معهم لن يكون بالتساهل واللين، فمن يستهزئ أو يستنقص فيحتاج إلى تربية.

اجتمعت الفرق الشبابية بعد الجولة الدعوية، وكل قائد مجموعة حكى عن جولته، فتبادل البعض الملاحظات والتطوير في مسألة الدعوة وكيفية التعامل مع العُصاة والمذنبين والمتهاونين.

كان «محمد» بجانب «مسعود»

مسعود: الحمدلله على السلامة.

محمد: الله يسلمك.

مسعود: أجر وعافية.

محمد: الله يعافيك ويحرمك من النار.

مسعود: جرحك هذا سيشهد لك يوم القيامة، فهذا نوع من أنواع الجهاد.

محمد: الله يتقبل.

مسعود: عسى ماتعوَّرت.

محمد: لا خفيفة.

مسعود: حدثني الشيخ «زهيد» عنك ويقول أن «سويدان» يثني عليك وأن فيك حماسا لطلب العلم والدعوة فلماذا لا تحضر لدروس «زهيد»؟

محمد: لي الشرف والشيخ «زهيد» صاحب موسوعة ولا بد أن ننهل منه.

مسعود: دروسه تبدأ كل اثنين وثلاثاء بعد صلاة الفجر في المسجد الذي بجانب منزله.

أول خطوة نحو التطرف

بعد صلاة فجر يوم الاثنين انطلق «محمد» إلى المنطقة النائية التي يقطن فيها «زهيد» وأتباعه، وكانت الساعة الخامسة، ودخل المسجد وأدى ركعتي التحية.

كان في المسجد خمسة من طلاب العلم، وجلس الجميع بشكل دائري يتوسطهم «زهيد»، الذي بدأ بشرح أحاديث من مسند الإمام أحمد.

كان تعاطي «زهيد» مع المُسند بشرح علم رجال السند بطريقة مصطلح الحديث ومن ثم شرح الحديث نفسه.

لفت انتباه «محمد» في الشرح إتقان ودراية «زهيد» بعلم الرجال وحفظه للمسند بكامله، فلم يكن يحمل معه مرجعا سوى ذاكرته.

بعد ساعة ونصف وأثناء الدرس، استأذن «محمد» من «زهيد» لكي يذهب، فسأله عن السبب وأخبره «محمد» عن موعد وقت الدراسة وإيصال إخوته لمدارسهم، فهز رأسه بامتعاض.

ربط «محمد» امتعاض «زهيد» من الموضوع بموقفه من المدارس والوظائف الحكومية عندما أخبره «سويدان» عن شخصيته، وكذلك

استنتج بعد الزيارة التي قام بها لمنزله سابقًا وذلك الحديث حول موقفه من الدولة «السعودية».

في اليوم التالي ذهب «محمد» للدرس وقبل البدء قال له «زهيد» عن نية الذهاب يوم الخميس إلى «بريدة» لزيارة أحد المشايخ هناك.

زهيد: أنصحك أن تذهب معنا وأن لا تفوِّت على نفسك الفرصة، لذا ننتظرك بعد صلاة الفجر.

محمد: سأرى في الأمر وإن كنت مرافقكم سأصلي الفجر هنا.

زهيد: لا تقل سأرى، فأنا مُصّر.

محمد: إن شاء الله إن لم يكن هناك ما سيمنع.

زهيد: سنقابل الشيخ عبدالكريم بن حميد.

محمد: لا أعرفه.

زهيد: هذا حاصل على الدكتوراه في الفيزياء الذرية من أمريكا وعمِل في أرمكو بالظهران والحمد لله دل طريق الحق والصواب.

همس «محمد» في أذن أحد الشباب عن الشيخ «عبد الكريم بن حميد» فسيرته أصابته بالفضول لكن الشاب فضَّل أن يكتشف «محمد» الشخصية عند ذهابه.

قلَّب «محمد» الموضوع في رأسه وقال في نفسه لماذا لا أذهب؟ فسيرة دكتور الفيزياء الذرية خلقت له الكثير من التساؤلات، وفي نهاية المطاف قرر الذهاب.

الخيل والسراج والطين

منطقة «الخبيبية» في بريدة اشتهر أهلها بالزراعة والفلاحة والكسب من ثمار النخيل، وأغلب بيوتها من الطين، وعُرف عن أهلها التمسك بالدين والحرص على العلم حيث برز منهم عدد من العلماء الزاهدين أمثال الدكتور «عبدالكريم بن حميد».

«ابن حميد» لا يستخدم الكهرباء، ويؤثر ركوب الخيل على استخدام السيارات ويسكن في بيت شعبي أقرب ما يكون من الطين، وحتى مسجده بُني على الطريقة القديمة فهو لا يستخدم الكهرباء بل يستبدلها بالسرج ومن أشهر آرائه إنكار لعلم الذرة.

قُبيل أذان الظهر من يوم الخميس وصل «محمد» برفقة «زهيد» وبعض طلاب العلم إلى «الخبيبية» حيث توقف «زهيد» بسيارته قرب مسجد الطين، وطلب من «محمد» خلع ساعة اليد وترك النقود التي بحوزته وحتى بطاقة الهوية ورخصة القيادة وتركها في السيارة لأن «عبدالكريم بن حميد» يرى تحريم الصلاة بها وحتى حملها لغير الضرورة لوجود الصور بها.

تقدم «محمد» بخطواته إلى المسجد وتأمله فإذا به مبني من

الطين وبعدما أن دخل إلى باحته الخارجية فإذا به مفروش برمل ناعم وأما سقفه فمرصوف بـ«مرابيع من خشب شجرة «الأثل» و«عسيب جريد» النخيل.

أدى الجميع تحية المسجد ومن ثم انتظروا آذان الظهر.

لحظات ودخل المؤذن ووقف في مكان مرتفع ورفع صوت الأذان، فتأمل «محمد» في هيئته بثوبه المتواضع وأشبه إلى المتهالك، وكذلك قصير الطول إلى ما تحت الركبة بقليل و«شماغه» مفتت وغير مغسول.

بعد الأذان تقدم إلى الصف وأدى السنة الراتبة والتفت على «زهيد» ومن معه.

المؤذن: السلام عليكم.

زهيد: عليكم السلام.

المؤذن: هل معكم دراهم أو بطاقات أو ساعات؟

زهيد: لا نحمل منها أي شيء.

دقائق معدودة وإذا بصوت صهيل الخيل وضرب حوافره على الأرض، في تلك الأثناء كان «محمد» ينتظر دخول عالم الذرة الذي ترك الشهرة والصيت والمال واستبدله بلا شيء غير الزهد والتمسك بالدين.

أقبل الشيخ «عبدالكريم بن حميد» فإذا به معتدل القامة وكث اللحية بيضاء ممزوجة بشعيرات سوداء، حنطي البشرة عليه معالم الجد والحدة في آن واحد.

تقدم إلى المحراب وأمر المؤذن بإقامة الصلاة.

أثناء الصلاة حدَّق «محمد» في هندام «بن حميد» فليس ببعيد عن ملابس المؤذن إن لم تكن أكثر لفتًا للنظر.

بعد الصلاة بقي «الشيخ» في محرابه وسلم على الجميع.

عبدالكريم: ياشيخ «زهيد» ألن تأتي وتقيم عندنا.

زهيد: لا بد أن نكون بالقرب من الرعية.

عبدالكريم: هل هناك نتيجة؟

زهيد: الحمدلله وهؤلاء هم النتاج فهم من خيرة الشباب.

تحدث «عبدالكريم بن حميد» عن أهمية طلب العلم والبعد عن مواطن الشُبَه وترك الترف، وأن النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سفينة نجاة هذا البلد، ولا ينبغي تطبيقه حسب المصلحة والمنفعة وأن لا يكون الأمر مطبقا على صغار القوم فقط بحيث لا يجرؤ أحد على إلحاقه بكبارها.

ثم تطرق إلى المناهج الدراسية وأنها تحتاج إلى مراجعة وتصحيح، وأن المناهج الدينية في طريقها للتقليص، وسيتخرج أبناء ليس في جعبتهم من الدين الإسلامي أي شيء وسينتشر الجهل والفساد. فماذا ترجون من طلاب يبدؤون نهارهم بالوقوف في الطابور والتحية للعلم، وماذا ترجوا من مدارس يجعلون حصة الرياضة في وقت صلاة الظهر.

ثم انطلق بحديثة عن الجامعات وانتقدها بوضع جرس الفاصل بين المحاضرات والتي أسماها بجرس «إبليس»، حيث أنه يرن وقت

محاضرات القرآن والحديث والفقة ثم قال «والله الذي لا إله إلا هو لو أن الشيخ «محمد بن عبدالوهاب» موجود الآن لما مرَّ من أمام فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالقصيم.

واستطرد في حديثه بأن بلدكم بلد الحرمين يذهب إلى الهاوية فأنقذوه، فقد خاطبت الأمير عبدالله بخطاب أنصحه فيه وردَّ عليَّ بأن بلدنا فيها من أهل العلم الذي يخشون الله فيها، فأنا أقول أن علينا بالنصح مرارًا وتكرارًا.

ثم استطرد حول دراسته في أمريكا وذكر أنه عاش بين ظهرانيهم، وعرف عن حياة الكفرة وعن أسرارها الشيء العظيم، فهم كالرعاع والبهائم لا يفقهون من أمر حياتهم إلا الأكل والنوم والملذات، وفيهم من النهم على الدنيا ما يجعل أحدهم يبيع أخاه لأجل دنياه كما أنهم يكرهون العرب كرهًا جمًّا.

ثم ختم قوله: لا تعتقدوا أني أعيش في جهل أو فقر بل إن الحداثة التي يعيشها الناس الآن ما هي إلا ابتلاء من الله، فلم أجد للحياة طعما إلا بعد قربي من الله والزهد عن ملذاتها وعمًّا في أيدي الناس، لذا أنصحكم بمراجعة أنفسكم والاستعداد لمواجهة أي طارئ قد يهدد هذا الدين، فإن الشيطان أمريكا سيقصف قلب الإسلام من منبعه.

غادر «زهيد» ومن معه مدينة «بريدة» وكان حديث «عبدالكريم بن حميد» أشعل داخل محمد تساؤلات أخذ يتعاطاها مع «زهيد» وكان

أهمها رأي الشيخ «ابن حميد» بالدراسة.

محمد: هل الدراسة حرام؟

زهيد: بل ذنب عظيم.

محمد: كيف؟

زهيد: كل من يتعلم في تلك المدارس فهو جندي يؤَسَسُ للفساد، والوظيفة التي تتلقاها بعد الدراسة ما هي إلا ضريبة والرواتب المستلمة من الدولة هي أصل الربا.

محمد: والحل؟

زهيد: أنا أسألك الآن ما هو الهدف من دراستك ؟

محمد: أن أستفيد وأفيد.

زهيد: تستفيد ماذا ؟؟ وتُفيد من ؟؟ دعني أسألك منذ أن بدأت بالدراسة ماذا رسخ في عقلك من العلم الشرعي ؟

محمد: القليل.

زهيد: إذًا فلماذا تغش نفسك وتستمر؟

محمد: على الأقل أصل إلى الجامعة وأدخل كلية الشريعة وأستفيد من العلم الشرعي أكثر ومن ثم أتخرج على الأقل بشهادة تؤهلني لمنصب يخدم ديني.

زهيد: خدمة الدين ليست بالشهادات بل بالتحصين العلمي الشرعي بطريقة صحيحة والدعوة بذلك، فكل أسلافنا من علماء الأمة لم يكن معهم شهادات، فالشيخ المجدد «محمد بن عبدالوهاب»

والشيخ «محمد بن إبراهيم» كلهم أصبحوا أعلاما بعد ثنيهم للركب أمام مشايخهم.

محمد: لكن زمانهم يختلف عن زماننا.

زهيد: العلم الشرعي وطلب الرفعة والأجر لا يقاس بزمن وليس له وقت مناسب أو مختلف.

محمد: وكيف بنظرك سأخدم ديني وأُمتي؟

زهيد: بالدعوة وتجنيد الشباب إلى ذلك، وإن رأيت نفسك غير قادر على ذلك فعليك بالجهاد.

محمد: أي جهاد ؟

زهيد: إخوانك في العالم الإسلامي مضطهدون.

محمد: يعني قصدك أسافر.

زهيد: هناك خيارات كأفغانستان الشيشان.

محمد: والغرض؟

زهيد: تتدرب على فنون القتال.

محمد: وهل أنا بحاجتها ؟

زهيد: لابدّ أن تكون لديك الخلفية ففي يوم من الأيام ستحتاجها فمثلك مثل أولئك الذين يتدربون في الجيش النظامي فهل هم بحاجتها؟

محمد: أكيد للدفاع عن البلد في حال أي اعتداء.

زهيد: هؤلاء لا يحمون البلد إلا من الداخل فلا يوجد لديهم عدو من الخارج فمن يحميهم «أمريكا فقط».

محمد: ما فهمت!

زهيد: حرب الإسلام وأهل الخير ومواجهتهم.

محمد: إلى هذه الدرجة سنصل ؟

زهيد: سيأتي اليوم الذي تتذكر فيه كلامي ويكون الدين في هذا البلد غريبا.

محمد: وهل الحل أن أذهب للجهاد أو أن أتدرب على فنون القتال؟

زهيد: نعم لتتمكن من الدفاع عن شرف دينك وعرضك فلا مانع من ذلك، فهذه الدولة لا تُحكّم شرع الله في جميع أمورها وتتحاكم إلى الطواغيت والقوانين الوضعية والى هيئة الأمم المتحدة ومحكمة العدل الدولية، وكذلك موالاتها للدول غير الإسلامية، وإن أضعف الإيمان أن تتدرب هنا.

محمد: كيف وأين.

زهيد: لكل أجلٍ كتاب.

بدأ «زهيد» بتزويد «محمد» ببعض المنشورات التي كانت تأتي من الخارج عبر الفاكس والمرسلة من المعارضة بقيادة «سعد الفقيه» و «محمد المسعري»، وذلك بشكل سري ودوري، حيث قرأ فيها بعض التسريبات حول ما يدار داخل أروقة النظام الحاكم، حينها لم يكن «محمد» يعلم بمصداقيتها، لكن الفضول والاستمتاع بمثل تلك التسريبات والأخبار يجعله ينصاع ويُصدّق خاصة بعد

تأكيدها من قِبل «زهيد» وذكر بعض الأحداث الداخلية التي تُثبت حقيقة ما يقرأ.

خلال جلسات مطولة مع «زهيد» اقتنع «محمد» بتوجهه وفكره، فأول قرار بدأ به تركه للدراسة لكن كيف له أن يتجرأ أمام والده.

قام «زهيد بنصح «محمد» بأن يتمارض داخل الفصل ويتظاهر بالإعياء والإغماء، ومن ثم لا يجد الأطباء أي عارض جسدي أو عضوي، وبذلك يفهم «والد محمد» بأن ابنه مصاب بـ«العين» أو «الحسد» أو «المس».

وبالفعل هذا ما طبقه «محمد»، فبعد عدة مرات يتظاهر فيها بالتعب والإعياء ثم الإغماء داخل الفصل، حيث يتعمد ذلك في درس معلمه «حمدان» الذي يتصف بطيب القلب والرحمة، وبدوره يطلب من وكيل المعهد أن يأذن له بالخروج.

ذات مرة طرح وكيل المدرسة على «محمد» التحويل إلى الانتساب، فأخبره «محمد» بأن والده هو العقبة الذي يحول بين تحقق ذلك.

اتصل وكيل المعهد العلمي بوالد «محمد» وأخبره بالمقترح وتفاعل والده مع الموضوع لخوفه على ابنه وأيضًا ثقة والده برأي الوكيل.

في المنزل تحدث والد محمد إلى ابنه متعاطفًا حول موضوع التحوّل للانتساب الدراسي، واستغرب «محمد» لهجة والده تلك، فتوقع

أن يعامله بنقاش حاد ومن ثم سينتهي بالتنازل عن دراسة الانتظام.

طلب منه والده أن يهتم بمواده الدراسية وأن يستفيد من زملائه المنتظمين، وتمتم قائلاً: «أهم شي صحتك والدراسة تتعوض».

حدث مراد «زهيد» وعقد «محمد» النية أن لا عودة للدراسة أبدًا.

مع اقتراب الامتحانات كان «محمد» يوحي إلى والده وأهله أنه ذاهب للمعهد ليؤدي الاختبارات، بينما هو في الأصل بمعية «زهيد» وأتباعه، فبعد فجر كل يوم يجتمع في مسجد «زهيد» ويقرأ عليه بعض السنن ومن ثُمَّ يذهب لإيصال إخوته لمدارسهم، ويتجه بعدها إلى منزل أحد أتباع «زهيد» في تلك المنطقة المعزولة لتناول القهوة، ومن ثم الإفطار، كما كان يتخلل تلك الجلسات نقاشات حول واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الحقيقي وفريضة الجهاد وعظمته، وما هو الواجب تجاه المجتمع، وتحذيره من عواقب المرحلة الحالية والمقبلة، وأنه لا حلَّ إلا بالخلافة الإسلامية في هذه الدولة.

كان «محمد» ضعيف البُنْيَة هزيل الجسم، لأجل ذلك أسدى «زهيد» نصيحة لـ«محمد» بالتدريب البدني وكانت وجهة نظره أن يكون قادرًا على الدفاع عن نفسه في أي حالٍ وأي طارئ، ويكرر على مسمعه دومًا «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف».

التفجير الأول

في الثالث عشر من نوفمبر 1995 صُعق المجتمع السعودي بأول تفجير مرَّ في تاريخهم وذلك عبر مفخخات زُرعت في مبنى مقر لبعثة تدريب أمريكية متعاقدة مع الحرس الوطني السعودي في حي العليا بالرياض ذهب ضحيته خمسة أمريكيين واثنين من الجالية الهندية.

وبعدها بوقت ليس بالطويل كشف التلفزيون الحكومي «القناة» عن هوية المدبرين لتلك العلمية، وشاهدهم معظم السعوديين في مشهد أعاد لذاكرتهم استعراض التلفزيون أحداث الاستيلاء على الحرم المكي من قِبل «جهيمان العتيبي» وأتباعه في العشرين من نوفمبر العام 1979 مع فارق المشهد، فأظهرت «القناة الأولى» اعترافات المنفذين الأربعة «عبدالعزيز المعثم» و «عايض الشمراني» و «رياض الهاجري» و «خالد السعيد».

لحظة إعلان الاعترافات كان «محمد» في المنزل، ودخل والده غاضبًا وهو يحمل بيده بعض المنشورات والأوراق التي وجدها في سيارة «محمد» وصرخ في وجهه متسائلاً عن سبب وجودها في سيارته، ثم أشار بسبَّابته إلى التلفاز وقال «هذولا جماعتك»، وشدّد عليه بأن

ينتبه لنفسه، وأن تحركاته الأخيرة غير مُطمئنة خاصة بعد التقليل من مرافقة «خليل».

حاول «محمد» أن يُقنع والده بعدم صلته بتلك الجماعة وأن يبرئ ساحته منهم ولكن خوف والده هو ما دعاه إلى القسوة، وكان بين المشكك والمتيقن بأن في الأمر ريبة، فبعد تلك الحادثة أصبح يتحرى ويسأل عن «محمد» كثيرًا.

تلك المنشورات التي وجدها والد محمد تخص النشاط الدعوي في استراحة «سويدان».

ركب «محمد» سيارته» وهو متألم من حال والده معه واتهامه له، واتجه إلى الاستراحة فزعًا، وأخبرهم بما حدث وأن والده أخبره بأن الاستراحة مراقبة، لكن «سويدان» لم يكترث للأمر، واعتبره نوعًا من التخويف فقط ويخص «محمد» لوحده.

بعد حادثة التفجير تلك، شدَّد النظام السعودي رقابته على التحركات الدينية المريبة وخاصة السرية منها، وبدأ بالتحري حول كل تجمع مُلفت، وزاد حرص شباب الاستراحة في إخفاء نشاطها عن الأنظار.

الاستراحة الجديدة

طرح «محمد» على «سويدان» تغيير مكان الاستراحة والبحث عن موقع يكون على ضواحي المدينة لكي لا يلفت نظر المباحث ورجال الأمن.

بعد بحث امتد لأسبوع وقع الاختيار على استراحة في مزرعة لأحد كبار السن المتعاطف مع الصحويين.

أصبح مكان الاستراحة الجديد مهيأ لزيادة النشاط الدعوي السري بحكم الموقع، وتم شراء أجهزة حواسيب ومكائن تصوير الأوراق.

بعد المستجدات على الساحة داخل «السعودية» اقترح «محمد» على «سويدان» توجيه الدعوة في الداخل أو تخفيفها في الخارج مؤقتًا، لأنها قد تفتح عليهم الأعين وأبواب قد لا تحمد عقباها.

لم يقتنع «سويدان» بالاقتراح وأصرَّ على استمرار المراسلات الخارجية، حينها شعر «مجمد» بالخوف من انكشاف الأمر خاصة لدى رجال المباحث اشتهر صيتهم في الآونة الأخيرة وأصبح من السهل أن يُشَكَّ بأي أحد حيث انعدمت ثقة «محمد» بأي دخيل أو صديق جديد.

تعاطى «محمد» مع المراسلات الدعوية السرية ولكن بحذر شديد ولا يُسلِّم المظاريف إلى مكتب البريد إلا بعد التأكد من الموظف عن سلامة الأمر، وكان يسأله دومًا «هل تم الانتباه للمظاريف أو لا ؟ فكانت إجابة الموظف بالمطمئنة لكنه طلب التخفيف وأن يكون الإرسال مرة في الأسبوع.

خلال تلك الأيام كان «سويدان» يستقبل بعض الشباب المتدين في الاستراحة ويطلعهم على البرامج الدعوية، وكانت ثقته بهم من باب ثقته بمن أتى بهم، إلا أن «محمد» يتوجس منهم وتنتابه الريبة من بعضهم.

كان هناك شخص يتردد بشكل دائم على الاستراحة يطلق عليه «سالم»، شعر «محمد» بزيادة تطفله وحاول جاهدًا أن يسأل عنه.

قام «محمد بالاستقصاء عن «سالم» وسأل الكثير من الشباب الذين يثق بمعلوماتهم، اتضح أن ثمة شكوكا بانتمائه إلى المباحث العامة، حيث أخبره أحدهم أن قريبًا له وقع فخًا بيد المباحث العامة بعد تعرف «سالم» عليه، ويعتقد أنه هو من قام بالإبلاغ عنه، إذ تم احتجازه والتحقيق معه.

أخبر «محمد» «سويدان» بالموضوع وصُعق بالخبر ونصحه «محمد» بأن لا يستقبل الغرباء الذين لا يعلمون عن النشاط الدعوي فالوضع خطير الآن.

اقترح «محمد» بأن تُعزل غرفة النشاط الدعوي وأن تكون بعيدة عن مدخل الاستراحة.

أصبح «سالم» يحضر تكرارًا ومرارًا، وكان شباب الاستراحة يحتاطون منه بشدة ويقومون بإدخاله إلى غرفة الجلوس ويتم إيقاف كل نشاط في حضرته.

كان بين الفينة والأخرى يسألهم «سالم» بإلحاح عن آخر التطورات الدعوية، ولماذا يراهم هادئين، حيث كانت إجاباتهم متَّفقة بأن الهدوء أفضل في هذه الأوقات.

اتضح على معالم وجه «سالم» عدم الاقتناع من الكلام وأصبح في لبس من الأمر واعتقد أن شباب الاستراحة قد علموا بأمره أو شكوا به.

المداهمة والاعتقال

ارتاب «محمد» الخوف من حدوث أمر لا يحمد عقباه عن طريق «سالم»، ففي زياراته الأخيرة أصبح ينقل لهم أخبار مداهمات للبيوت وأماكن التجمعات الشبابية المريبة.

فذات مرة جاء «سالم» وجلب معه شخصًا زعم أنه ابن عمه، وخلال الحوار سأل «سالم» شباب الاستراحة عن توقعهم لمداهمة تقوم بها المباحث العامة لمقر الاستراحة؟ وهل هم على استعداد في حال تم ذلك؟

تأكد الشك داخل «محمد» تجاه «سالم» وذلك عبر تكرار أسئلة «سالم» المريبة.

أجابه «محمد» بعدم وجود ما يخيف، فهم لا يتعاطون مع أي شي ممنوع أو غير مصرح به، بل هو تحت مظلة مكتب الدعوة والإرشاد، وأن هذه الاستراحة مجرد مقر مؤقت كمستودع للمكتب.

بعد أربعة أيام وفي عصر يوم الجمعة كان «محمد» و «سويدان» في الاستراحة يقومان بترتيب غرفة النشاط الدعوي ومحاولة إعادة تهيئتها احتياطًا واستبعاد لأي منشور أو كُتيِّب لا يحمل شعار مكتب

الدعوة، حينها سمعا صوت دوي قوي تجاه الساحة الخارجية من الاستراحة وكأنه صوت حادث سيارة أو ما شابه ذلك.

تقدَّم «محمد» إلى باب الغرفة وهو يسمع تعالي أصوات رجال في الخارج، فتح الباب فإذا برجال يرتدون ملابس عادية وبرفقتهم رجال أمن يحملون الأسلحة، فأحكم إغلاق الباب وتحدث لـ«سويدان» بصوت منخفض «مباحث» «مباحث»، وانطلق للباب الخلفي للغرفة والذي يُشرف على زقاق صغير خارج الاستراحة حيث أن الباب مغلق بالمزلاج فقط ويسهل فتحه من الداخل،ففي اللحظات التي كان «محمد» يحاول فتح الباب، سمع صوت أحد رجال المباحث يقول «استسلموا ولا تبدوا أية مقاومة».

لم يعلم «محمد» حينها دوافع رغبته في الهرب، فليس لديهم أسلحة ولا متفجرات، ولكنها ردة فعل طبيعية.

طلب منه «سويدان» الهدوء فليس هناك ما يستدعي الخوف، واتفقا على أن تكون إجابتهما موحّدة وأن كل ما لديهم تحت مظلة مكتب الدعوة، وطلب من «محمد» فتح الباب وأن يكون طبيعيًا.

لم يتكلم معهم أحد من رجال المباحث ولم يوجّهوا لهم أية تهمة، وطلبوا منهما الخروج من الاستراحة بهدوء وركوب السيارة والذهاب برفقتهم.

في مقر المباحث تم إدخالهما إلـى الحجز وشَعُر «محمد» بالخوف الشديد الذي يُخفي له ما بعد الحدث.

بعد الهدوء وحديث النفس استطاع أن يفهم ما يدور حوله وفكر بكيفية الخروج من هذا المأزق رغم توقعه أن لا يخرج منه بسهولة.

استنتج لاحقًا أن الخوف الذي انتابه ما هو إلا الخوف من والده في حال علم بالأمر وأيضًا خوفه على والدته في حال لو سمعت بالخبر.

كان «سويدان» يتوقع أن يتستر عليه مدير المكتب الذي تواطأ معه حينها فلذلك هو مطمئن.

طال الانتظار وبدأ «محمد» بالقلق فلا يعلم هل وصل الخبر إلى والده و أهله، وفي كل ساعة تمر كانت كالشهر.

بعد 12 ساعة تم استدعاء «محمد» إلى مكتب الضباط.

الضابط: كيف حالك يامحمد.

محمد: الحمدلله.

الضابط: تدري إني انصدمت منك وانحرجت في نفس الوقت.

محمد: ليش؟

الضابط: والدك شخص متنور ومعروف بالمجتمع.

محمد: وأين المشكلة؟

الضابط: كيف لك أن تخرج من تركيبته تكون بهذا التوجه.

محمد: حرية شخصية وأنا مقتنع مما أفعل ولم أقم بشيء مشين.

الضابط: لكنك تسير في طريق نهاية مريبة.

محمد: كيف مريبة؟

الضابط: الوضع الآن خطير وأنت تدرك حجم الخطر الذي بدأ في البلاد.

محمد: هذي ضريبة الضغط.

الضابط: أي ضغط؟

محمد: سجن العلماء والتضييق على طلاب العلم فمن الطبيعي يحصل أي ردة فعل.

الضابط: أنت مُقر بهذا الشيء؟

محمد: أنا مالي علاقة.

الضابط: لو مالك علاقة ما كنت في مكتبي الآن.

محمد: شفتوا معي متفجرات أو أسلحة ومخططات؟

الضابط: لا، لكن هذه أحد علامتها.

محمد: الدعوة إلى الله أضحت تخريبا؟

الضابط: لما يكون بدون تصريح يعتبر مخالفة.

محمد: نحن تحت مظلة مكتب الدعوة.

الضابط: وأين التصريح والإثبات؟

محمد: بما أنكم عرفتم كيف تتوصلون لنا ستعرفون كيف تأتون بالتصريح.

الضابط: لدي معلومات بأن لك سابقة مكة وفي داخل الحرم، تتذكرها؟

محمد: أتذكرها !

الضابط: لو قدمته الآن مع هذا التحقيق قد يكون فيها سجن، لكني سأنصحك لسببين، الأول من أجل والدك، والثاني لأنك لا زلت في أول شبابك وأمامك الخيارات، وسأعتبر هذا اللقاء مجرد دردشة.

محمد: يكون خيرًا إن شاء الله.

الضابط: وأنصحك أن لا تذهب إلى الاستراحة لأنها أُقفلت، ولدي نصيحة أخرى، ابتعد عن «زهيد» فلن ينفعك.

خرج «محمد» من مقر المباحث العامة وتوجه للمنزل وكله غضب وخوف وحيرة وتفكيره كان مع «سويدان».

فالغضب كان من تصرف الضابط والخوف من والده وأهله لو أنهم علموا بالأمر وحيرته حول القادم.

وصل «محمد» إلى المنزل لكنَّ الأمرَ لا زال مُطَمئنا فلم يعلم أحد، فقد يكون موقع الاستراحة خارج النطاق العمراني استدعى عدم الشعور بالأمر.

في اليوم التالي ذهب «محمد» إلى «خليل» الذي أخبره بأن «سويدان» تم التحفظ عليه، وقد يُرحل إلى سجن «الحاير» في «الرياض» وأما عن بقية الشباب فلم يستدعهم أحد، وأن الاستراحة تم مصادرة محتواها.

علم محمد أن المباحث علِمت أن أمر الدعوة التي يتبناها «سويدان» لم تكن تحت مظلة مكتب الدعوة.

اعتناق المذهب التكفيري

اتجه «محمد» كعادته إلى «زهيد» مع فجر اليوم التالي، وأخبره بما حصل في الاستراحة فلم يكن على علم، فاستشاط غضبًا وأزبد وأرعد وذكر لـ«لمحمد» أن هذا ما كان يخشاه، وأن هذا ما تحدث به معه وبأن القضاء على الإسلام بدأ وهي البداية لمحاولة تجفيف منابع التدين.

وقصَّ على «محمد» الاستدعاءات التي واجهها من قبل على يد المباحث، وطلبهم منه التوقف عن نشاطاته الدعوية والتوقيع على التعهدات.

انطلق «زهيد» بشحن فِكر «محمد» بدلائل وقرائن تزيد من جام غضبه على الدولة، وكيف كان تخطيط الدولة منذ غزو الكويت بالحد من النشاط الصحوي والدعوي، والذي اعتُبر الخطر على قرارات سياسية محلية وعلاقات خارجية، كما حث «محمد» على البدء بنفسه أولاً وبأهله ثانيًا، ليكون صادقًا في منهجه وطريقة دعوته.

أصبحت رؤية «محمد» للدولة نظرة عداء، وأنها ستقود أرض الحرمين إلى الانفتاح المحرم، وإلى وهب المرأة حقوقًا خارجة عن

الحدود التي شرَّعها الإسلام، إضافة الى قيادتها للسيارة واختلاطها مع الرجال في العمل والدراسة وغيرها الكثير والكثير.

بدأت تتغير لدى «محمد» المفاهيم حول عدم شرعية الحكومة، وأنه لابد من رضوخها لمطالب تطبيق الشريعة الإسلامية الحقة بكل حذافيرها أو أنّ تغييرها في حال مكابرتها ومعارضتها واجب.

إصرار الدولة في القضاء على الفكر المتشدد حينها جعل «محمد» يؤمن بمذهب تكفيرها وتكفير كل من يعمل في قمع الصحويين والدعاة، ممن هم تحت مظلتها أو حتى من يؤيدها، حتى أنه ألحق والده تحت تلك المظلة، فلم يكن يراه دومًا أو يجلس معه لكي لا يصطدم به.

التضييق على العائلة

راجع «محمد» نفسه بعد نصيحة «زهيد» في مسألة البدء بإصلاح أهله أولاً، ففكرة الإصلاح تتعلق في الملبس وبعض تلك المخالفات التي يراها المتشددون مخالفة صريحة لمبدأ الشريعة الإسلامية، ومنها الخروج من غير محرم والمراقبة العامة في جميع التصرفات والأفعال كون المرأة عورة و«عارا وشرفا وعرضا».

بدأ «محمد» بنصح شقيقاته وذلك بترك لبس النقاب والبنطال ونهرهن عن الاستهانة بسماع المعازف التي تصحب البرامج والمسلسلات عبر التلفاز.

بدأ بالتوجيه والنصح بشكل مستمر ومُلحّ فتضايق أهله من تصرفه المتشدد وطريقة غضبه المنفعل والغير منضبط، فطبيعة والدته الهادئة والمسالمة لم تكن تتصادم معه في وقت نقاشه الحاد مع شقيقاته.

بدأ في أول الأمر بإهداء نُسخ من الأشرطة الدينية للمحاضرات والخطب التي تتعلق بالمرأة وهي لبعض مشايخ

الصحوة كـ«سلمان العودة» كـ«أيتها المرأة احفظي قلبك وجوارحك» وأيضًا «ناصر العمر» في شريطة «فتياتنا بين التغريب والعفاف» وكذلك «فهد البشر» في شريطة « أساليب العلمانيين في تغريب المرأة المسلمة» وغيرها.

ذات مرة قررت عائلته السفر إلى أقاربها في مدينة «المجمعة»، ولم يكن من بد لذهابهم إلا برفقة «محمد» كونه معترضًا على ركوبهم مع السائق «راجندار» بدون محرم فإخوته من الذكور لم يبلغوا سن الرشد حينها.

قبل الخروج من البيت طلب من شقيقاته لبس العباءة بشكل ساتر، وكذلك وضع القفازين على اليدين ولبس الجوارب على القدمين، وعارضت شقيقته الكبرى «هدى» ورفعت صوتها عليه.

هدى: إيش هذا التشدد عندك؟

محمد: هذا ستر واجب عليك.

هدى: منتب احرص من أبوي علينا.

محمد: انتي تكابرين هذا شرع الله.

هدى: دام أبوي يشم الهواء مالك كلام علينا.

محمد: أجل والله ما تسافرون.

حاولت والدة محمد تهدئة الأمر بينهما فخشيّت على «محمد» من والده، وحاولت إقناع «هدى» بالرضوخ لأجل أن ينتهي الأمر ويذهبوا وبالفعل لبِسَن ما أراد «محمد».

في الطريق أمر أخته الوسطى «نوف» بأن تقرأ على مسامعهم كتاب «الأصول الثلاثة» وكانت تخطئ في القراءة و«محمد» ينهرها ويأمرها بأن تقرأ جيدًا وتتأنى وأن تفهم ما تقرأ.

بدا على «نوف» القلق والخوف فهي تخشى «محمد» كثيرًا لأنه كان يضربها على الدوام بسبب أو من دونه وكذلك شقيقته الصغرى «منال» التي لم تسلم هي الأخرى.

أنزلَ عائلته في منزل خالته وحرَّص والدته بأن لا يخرجن من غير محرم، وأن لا يرين الشارع من دونها وأن لا يبتنَ في منزل أي أحد من الأقارب من دون أن ترافقهن.

عاد «محمد» إلى «الزلفي» وأول قرار اتخذه بعد دخوله للمنزل أن صادر التلفاز ووضعه في غرفته ومن ثم توجّه إلى غرفة شقيقاته وبدأت بتفتيش أغراضهن، فلم يدع صورة إلا أتلفها ولا شريط فيديو لمسلسلات أو مسرحيات إلا أخذها ليحرقها، وحتى بعض الملابس كالجينز والقمصان والتنانير القصيرة رماها.

كانت لشقيقته «هدى» صديقة دراسة لكنها في نظر «محمد» هي من تُحرضها على الإقدام نحو المعاصي، فقرّرَ تركيب جهاز تنصت على المكالمات لأن «هدى» كثيرة التحدث مع صديقتها عبر الهاتف.

في يوم الجمعة ذهب «محمد» إلى «المجمعة» لجلب عائلته، ففي تلك الفترة لم يعد يهتم من صلة رحمه عكس ما كان يتحمس في طفولته وانتظار عطلة نهاية الأسبوع أو الإجازة الصيفية.

عند وصولهم إلى منزلهم في «الزلفي» أوقف «محمد» السيارة أمام باب المنزل وأنزلَ عائلته، ولم يكترث بما فعل ولا من ردة الفعل، وذهبَ منطلقًا إلى منزل «زهيد» لحضور اللقاء الأسبوعي.

في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل عاد «محمد» إلى المنزل ووجد والده في انتظاره عند الباب وهو غاضب.

والد محمد: أنت بتجيب لي الجلطة ؟

محمد: ليش؟

والد محمد: ليش أخذت التلفزيون وبعدين إيش سويت في أغراض أخواتك؟ أنت ماتفهم؟

محمد: إلا أفهم بس ترا هذا مايجوز.

والد محمد: أنت إيش عرفك بالحلال والحرام ؟ هذولا بناتي ودام أني حي مالك سلطة عليهن.

غضب «محمد» من كلام والده وذهب من أمامه ودخل إلى المنزل، وكانت أمه تنتظره وهي متضايقه.

محمد: من اللي راح إشتكى علي ؟

والدة محمد: ما أحد ياوليدي.

محمد: أجل من أخبر أبوي ؟

والدة محمد: دخل وحصَّل أخواتك متضايقات و «نوف» تبكي وسألهم بعدين شاف التلفزيون مو في مكانه.

محمد: طيب ليش تكلمت وإشتكت علي؟

والدة محمد: ياوليدي الله يهديك هذول أخواتك خف عليهن شوي.

محمد: الدين والالتزام بالدين مافيه تخفيف ولا تضييع، بعدين من طلَّع التلفزيون ؟

والدة محمد: أبوك دخل غرفتك ودوَّر عليه ماحصله وكسر قفل الدولاب.

اشتاط «محمد» غضبًا مضاعفًا وذهب إلى غرفته وعرف أن والده لم ينتبه لجهاز التنصت على المكالمات وفتح «محمد» التسجيل واستمع لمكالمة «هدى» التي قامت بها بعد عودتهم وهي تتحدث إلى صديقتها، لكن لم يسمع شيئًا ملفتًا في المكالمة.

خرج من المنزل وذهب إلى المطل الرملي الذي كان يرقد فيه هو و «خليل» في أول أيام معرفته به.

تضايق جدًا من كسر والده لهيبته أمام شقيقاته فهو بذلك يقوي شوكتهن عليه وعلى أنفسهن.

طوال تلك الليلة كان جالسًا على ضفاف الرمل يصلي ويتضرع إلى الله وهو يبكي بأن يصلح حال والده وأهله إلى أن حان آذان الفجر.

منذ أن بدأ مع شباب الاستراحة، لم يكن «محمد» كثير الجلوس مع عائلته إلا سويعات خلال الأسبوع، فكل الوقت في الخارج ولا يرى والده إلا مرة في الأسبوع.

فلم يستمع عن حاجات شقيقاته ولا عن مشاكلهن ولم يتحدث يومًا عن اهتماماتهن، فقد كان يراهُنَ خُلِقنَ للمنزل ولخدمة الرجل فقط وليس لهن أي دور، لذلك فجنَّتها مربوطة بالتقيد بتعاليم دينها وفي طاعة بعلها.

ضاقت الدنيا بـ«محمد» ولم يسعه فيها شيء وذهب يبحث عما يشغله عن التوتر الذي يراه حاصلا في منزل عائلته.

بعد صلاة الفجر ذهب إلى «زهيد» في مسجده وشكا له الحال.

انتقال العائلة

خلال تلك الفترة تقدم عريس إلى شقيقة «محمد» الكبرى «هدى» وكان العريس «مُلحم» قريب من العائلة فقد كان والده صديقًا مقربًا لوالد «محمد».

تم الزواج وانتقلت «هدى» مع زوجها إلى «الرياض» حيث يعمل هناك.

شعر «محمد» بأن الحِمل قد خف عليه قليلاً لأنه يرى فيها حجر العثرة بينه وبين شقيقاته الأخريات.

ذات يوم زفَّ والد محمد نبأ انتقال عمله إلى «المجمعة» فكانت الفرحة العارمة تعج في المنزل، فتضايق «محمد» من ذلك وتأكد أنه جاء في الوقت الغير مناسب الذي قد يهدم ذاك الانتقال كل ما كان يُحضِّر له، وقرر أن لا يذهب معهم وأن يبقى في «الزلفي».

عند موعد الانتقال لم يُظهر «محمد» لوالده ولا لأهله أي شيء فقام بمساعدتهم في نقل الأثاث والأمتعة، وذهب إلى «المجمعة» لفترة وجيزة إلى أن استقر كل شيء، وفجأة أخبر والدته بأنه عائد إلى «الزلفي» ولن يبقى هنا فلم يستطع التأقلم أبدًا وأن روحه معلقه هناك.

حاولت والدته أن تثنيه عن رأيه، فهي تخشى من والده أكثرّ من أي شي آخر، وأخبرها «محمد» بأن تتقبل الواقع وإن سأل والده عنه فتخبره بالحقيقة، هنا شعرت والدته بالحسرة فكانت تعتقد أن الانتقال قد يساعد ابنها في التغيير وكأن ذلك الانتقال لم يغيّر أيَّ شي وبقي قلبها مفطورًا.

عاد «محمد» إلى «الزلفي» وعلم والده بذلك وغضب عليه وحاول أن يتواصل معه لكي يعود لكنه أصرَّ على عدم العودة فتركه والده معتقدًا أنه سيمل لوحده وسيعود.

استأجر «محمد» بيتاَ شعبياَ لا يتجاوز إيجاره السنوي ستة آلاف ريال.

استخدم محمد المنزل مقرًّا للالتقاء بالشباب، كما وضع جهازًا للفاكس يستقبل منه بعض الفاكسات من الخارج حيث تأثر بـ«زهيد»، كما وشعر بالأمان والخصوصية التي خلقها لنفسه.

خروج دعاة الصحوة

بعد خمس سنوات تقريبًا من اعتقال دعاة الصحوة المتمثلة بـ«سلمان العودة» و«ناصر العمر» و«سفر الحوالي»، أي في أبريل العام 1999 ابتهج المشايخ وطلاب العلم في «السعودية» وخارجها واعتبروه نصرًا مبينًا وفرجًا جديدًا للإسلام والمسلمين، إلا أن الحقيقة أثبتت فيما بعد هدوء أولئك الدعاة والتخفيف من وحي رسائلهم الحادة إلا في بعض التوجهات والآراء الغير معلنة، فـ«السرورية»مرضت في أوائل الألفية، لكن الظروف عززت الإخوانية وربَّت القاعدية، فـ«سلمان العودة» وجد أثناء سجنه أن رسالته لابد أن تهدأ وأنها لن تدوم بنفس النهج القديم لأسباب معينة وأنه لابد له من تعديل الخطاب لغرض الاستمرار، فالكثير من أتباعه السابقين اتهموه بتغيير الفكر والمنهج والقبول بالهدنة التي قدمتها له الحكومة السعودية، إلا أن الحقيقة تثبت عكس ذلك فـ«سلمان العودة» قبْل الاعتقال هو نفسه بَعدَه ولكن بأيديولوجية جديدة وتلوُّن جديد يخدم رسالته السابقة، فهو ينهج الطابع الإخواني المتمثل بمجاملة من يشاء طبقًا لمتطلبات المرحلة كما يراها هوَ، ويعتقد البعض أن عدم اعتذاره لأتباعه وذويهم هو

«الجحود»، لذا انتقدوه انتقادًا كثيرًا، بينما هو في الأصل يرثي حالهم كونهم لم يفهموه الآن، فانطلق في فضاء العالم يُروِّج لمنهجه المتجدد حتى وصفه الكثيرون بأنه المميع للدين، بينما رآه آخرون بالتنويري.

أما الشيخ «سفر الحوالي» فلم يتعاطَ كثيرًا مع منهجه السابق، كون المرض أنهكه فيما بعد وبقي منشغلاً في نفسه وصحته، إلا أن آراءه السابقة لا تزال تتراءى لطلابه وأتباعه.

لكن الشيخ «ناصر العمر» بقي على منهجه وحِدّته في الخطاب لكن ليس كما كان سابقًا، فطريقة تعامله مع القضايا تأخذ الطابع المتشدد.

كما أن الشيخ «عائض القرني» الذي واجه التحديات في طريق دعوته، واعتقل إثر سلسلة محاضرات ألقاها في مسجده بـ«أبها» وبعض مدن المنطقة الجنوبية في السعودية والمنددة بالوجود العسكري الأجنبي بسبب غزو«الكويت» إلا أن السلطات السعودية أطلقت سراحه فيما بعد وقيدت نشاطه وتوقف نشاطه عشر سنوات، وترك المنطقة الجنوبية وانتقل إلى «الرياض» ليعود لاحقًا لاستكمال نشاطاته بعدما سمحت له الدولة ولكن بطريقة متجددة تميل إلى التهدئة الممزوجة بالآراء الإخوانية الغير صرفة.

أما الشيخ «سعيد بن مسفر» فلم تتضايق الدولة من نشاطه الدعوي لأن منهجه كان مركزًا على قضايا الإيمان ومشاكل الشباب وشؤون الأسرة.

أما شاعر الصحوة سابقًا «عبدالرحمن العشماوي» كان قد فُصل من تدريسه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في ذلك الحين بسبب تعاطفه مع التيار الصحوي وكتابته لبعض القصائد المؤيدة للفكر السروري وكذلك الشد من أزر المجاهدين، إلى أن تحوَّل منهجه وفكره لاحقا، فأخذت بعض قصائده منحى تبجيل شخصيات سيادية في الدولة السعودية، وهنا وصفه أصدقاؤه وعاشقوه بالأمس بالتحول إلى التيار الجامي.

بعد خروج المشايخ من المعتقل بيومين قام «محمد» ومعه بعض من الشباب بالتوجه إلى «بريدة» للسلام على الشيخين «سلمان العودة» و «ناصر العمر»، حيث اكتظ منزل الشيخ «سلمان العودة» بالناس المهنئين لهما بسلامة الخروج.

مرت الأيام والأشهر ولاحظ «محمد» أن خروج المشايخ لم يتبعه أي انفراج على عودة الدروس العلمية ولا حتى محاضراتهم، وشعر أن الإفراج عنهم كان لأجل تخفيف الضغط العام أو ما تقتضيه تلك المرحلة، وأن عدول الدولة عن استمرار الاعتقال ليس من أجل رجوعها للحق فلا زال في السجون معتقلون، فقرر جازمًا خوض غمار التدريب البدني واستكمال جدول مهامه المستقبلية.

التدريب على الأسلحة

أصرَّ «محمد» على «زهيد» بأن يبدأ بالتدريب ، فتجاوب «زهيد» ووعده بتسهيل المهمة له وذلك عبر أحد أصدقائه الذي سيكلفه لتبني التدريب.

استغل «زهيد» حالة «محمد» المنكسرة وتحدث معه بأن طريق الدعوة مليء بالأشواك، والمسلم لا يكل ولا يمل، وأن ما فعله «محمد» مع أهله ما هو إلا باب من أبواب أداء الأمانة.

زهيد: سأنصحك وأتمنى أن تأخذ بالنصيحة.

محمد: إن شاء الله.

زهيد: مجابهة والدك لك أشبه بما قد تواجهه مع الناس ضعيفي الإيمان والمتفطرسين والعلمانيين والمُغَرِبين.

محمد: يعني قصدك أستمر؟

زهيد: لا ليس هذا مقصدي أنا أريد أن أُشغلك بما هو أعظم، أريد منك قائدًا أعتمد عليه، أريد منك بطلاً يفتخر به الإسلام والمسلمون وأن تكون لك بصمة في خدمة هذا الدين والذود عنه.

محمد: كيف وبأي طريقة وبماذا تفكر؟

زهيد: أولاً عليك أن تتدرب على عدة مهام، أولها تقوية بنيتك وثانيها أن تتأهل لبرنامج الدفاع عن النفس وثالثها التدريب على الأسلحة؟

محمد: الأسلحة؟ لماذا؟

زهيد: الأمة الإسلامية مقبلة على نفق مظلم وخاصة في بلد الحرمين فأمريكا زرعت قواعدها العسكرية على أرض الجزيرة العربية، وهناك بعض المشايخ الفضلاء الذين يقرؤون جيدًا في سياسة الدولة والمنطقة قائلين بأن هناك تحالفًا بين دول الخليج وأمريكا، فقد تعطي تلك الدول الضوء الأخضر للجيوش الأمريكية في سحق جذور قوة أهل الصلاح والدعوة والتغيير، فحينها لابد أن نكون على اطلاع واسع بعلوم الحرب ومتأهبين لأي طارئ، ألم تعلم ماذا عملت حكومة الجزائر بإخواننا المسلمين هناك، فخبرة المجاهدين بعلوم القتال ساعدهم في البقاء إلى الآن في خط المواجهة، فلو لم يكونوا على دراية بالسلاح لسحقتهم الحكومة أعانهم الله ونصرهم.

محمد: وكيف لي أن أتدرب وأين وعلى يد من؟

زهيد: اليوم بعد صلاة العشاء أُخبرك بالتفاصيل.

شعر «محمد» بأن المسلمين لازالوا بخير طالما أن هناك أمثال «زهيد» و «سويدان» لكنه تحسّر عندما تذكر اعتقال «سويدان» وهذا ماجعله يفكر بالإصرار على التدريب ومواجهة الباطل في يوم ما.

بعد صلاة العشاء حضر «محمد» إلى «زهيد»، وجلسا في المجلس يتبادلان الأحاديث فقد كانت لـ«محمد» النية في التنظير والتجنيد لبعض الشباب الذين كانوا معه في مكتبة «مصعب» لنهج طريق الصحوة المتجددة.

لم يعارض «زهيد» المقترح وأعطى لـ«محمد» الضوء الأخضر في ذلك، وطلب «محمد» أن يرجع إلى «زهيد» للمشورة وأن يجلبهم لحضور الدروس الفجرية.

بعد نصف ساعة حضر «جواد» الذي كان يعمل مُعلّم تربية رياضية، وتعرَّف إليه «محمد» وطلب منه «زهيد» أن يقوم بتدريب «محمد» على كمال الأجسام، ومن ثم البدء في تلقي العلوم القتالية عبر استعمال الأسلحة.

طلب«جواد» من «محمد» كتمان الأمر بالكلية وعدم التحدث به لأي أحد، لأنه في حال انكشف الأمر فالمصير هو الاعتقال، وقد يكون السجن المؤبد، وأن مصلحة الأمر تقتضي ذلك.

طمأنه «زهيد» وأخبره بأن «محمد» من الثقات وأن يتوكل على الله.

جواد: ستنظم إلى مجموعة من الشباب وتتعرفون على بعضكم وتكون عملية التدريب عبارة عن «نزهة برية».

محمد: هل هناك مكان مخصص؟

جواد: لا حتى ما نلفت الانتباه.

محمد: متى نبدأ؟

جواد: الخميس القادم.

محمد: لماذا لا يكون وسط الأسبوع؟

جواد: حتى ما نلفت الانتباه ويكون طريقنا مليئًا بالناس في وقت الإجازة الأسبوعية، ومن ثم ننتقل إلى المكان المخصص، إذًا يوم الخميس بعد صلاة الفجر سيكون الموعد عند آخر محطة بنزين شمال المدينة.

محمد: إن شاء الله

فجر الخميس توجه «محمد» إلى منطقة اللقاء حيث يمتلكه الخوف مع حماس الرغبة، فالخوف الذي اعتراه إنما حرصه من عدم انكشاف الأمر.

وصل إلى المحطة فوجد المجموعة قد سبقته وعددهم خمسة وهو سادسهم، طلب منه «جواد» إيقاف سيارته بعيدًا والترجُّل إليهم، تعرَّف «محمد» على ملامح الشباب الأربعة واكتشف أنه يعرفهم منذ أيام المركز الصيفي، ومنهم المشرف «عُروَة» الذي كان من أشد المتحمسين والقياديين أيام المركز.

سأله «محمد» عن «عمَّار» ومصعب» وأخبره «عُروَة» عن اعتقالهما قبل سنة، وأن «مصعب» خرج لكنّ عمَّار»لا يزال في السجن.

توزعت المجموعة على سيارتين وكل سيارة تحمل مؤونة «النزهة» كالحطب ولوازم الطبخ، وكانت الأسلحة وهي من نوع G3

وعددها ثلاثة مخفية أسفل المقاعد.

في الطريق وبصوت منخفض همس «عُروَة» بأُذن «محمد» بأنه توقع رؤيته في يومٍ ما بهكذا موقع، فقد كان يرى فيه الجُرأة في الطرح وكثرة الأسئلة والانتباه والحماس والإيجابية في تَقبُل ما يُكَلّف به.

وصل الجميع إلى مكان ناء وبعيد عن الأنظار في عمق الصحراء، وأنزل الجميع المؤونة وبدأ «جواد» بطرح الخطة.

جواد: ياشباب أعرفكم بالأخ «ماهر» المدرّب على الأسلحة وله خبرة في التعامل معها فقد كان آخر الشباب المجاهد الملتحق بالجهاد الأفغاني، أما أنا سأبدأ معكم في النصف الأول من النهار ببعض التمارين الرياضية وطرق الدفاع عن النفس، والتي تسمى بفنون القتال ومن ثم يبدأ ماهر بتعليمكم فنون القتال واستخدام الأسلحة.

ماهر: أهلا بكم ياشباب أنتم الآن هنا بعد تزكية قوية لذلك لا أحتاج إلا أن أطلب منكم نسيان ما ترونه هنا بعد عودتكم إلى أن نلتقي الأسبوع الذي يليه وهكذا.

محمد: ما علاقة التدريب البدني بالتدريب على الأسلحة؟

جواد: أثناء استخدام السلاح يحتاج الجسم إلى لياقة حتى يستطيع الشخص السيطرة على توازنه والتحكم في الأداء.

قبل البدء طلب «جواد» من الجميع تناول المنشطات والتي أحضرها معه، وكذلك أخذ الحقن الخاصة بتحمُّل الجسم للطعام الفاسد.

بدأ «جواد» بتعليم الشباب على أسس اللياقة ابتداء من الجري لمسافات طويلة وذلك لتحمل التعب والإجهاد، وكذلك المشي لفترة طويلة في الأماكن الوعرة، وأيضًا بعض الفنون القتالية الصينية كـ«التكوندو» و «الكاراتيه» و «الجودو».

بعد التمارين جاء وقت الإفطار فكان عبارة عن معلبات منتهية الصلاحية، وذلك لتكتمل منظومة التدريب البدني وهو تقبل أكل أي شي، وهو الدور الذي يساعده أخذ الحقنة.

بعد منتصف النهار جاء دور «ماهر» لتعليم فنون الرمي والتعامل مع الأسلحة، وبدأ بشرح مفصل حول سلاح G3 وذكر للشباب بأنها بندقية ألمانية الصنع مطورة عن بندقية الاقتحام (S-T-G-M45)، والتي استخدمت خلال الحرب العالمية الثانية.

وتطرق إلى أن هذا السلاح يستعمل كسلاح فردي رئيسي في حوالي 50 جيشًا حول العالم ومنها «ألمانيا» و «باكستان» و «الهند» و«السعودية» و «إيران».

وأخبرهم بوجود نوعين من الأخمص للبندقية، فهناك نوع «بلاستيكي» وآخر «خشبي» وآخر «حديدي» يتداخل حول السلاح.

ومن ثم انتقل إلى استخدامات البندقية، فمنها ما هو مخصص للاقتحام وأخرى كبندقية قناصة بعد تزويدها بمنظار.

وأخيرًا انتهى إلى مواصفات السلاح ومواصفات الطلقات من ناحية الوزن ومقياس الطلقات ونوع الأنشطة وعدد الطلقات في

الدقيقة، ومدى مسافة الطلقة ومقياس سرعتها وكذلك نوع الرمي الآلي والنصف آلي.

عند الانتهاء من الشرح انتقل «ماهر» إلى وضعيات السلاح وإلى كيفية التعامل معه عند الوقوف في حال السِلم وفي حال المواجهة وكذلك حمله أثناء المشي وأيضًا حال الجري.

بدأ «ماهر» بتعليم «محمد» على الرمي بالتأشير، وهو تمرين ابتدائي يؤديه الرامي بمساعدة معلم وهدفه توجيه الرامي لتصحيح أخطائه التي تظهر أثناء الرمي واختبار قدرته على التجميع حسب مسافات مختلفة وحتى 300 متر.

ومن ثم انتقل بـ«محمد» إلى تمرين الرمي المُمَوّه، وهو عبارة عن هدف لإكساب الرامي مهارة التعرف على الأهداف وإجراء الرمي طبقًا لقواعد الرمي على الأهداف المموهة.

وتعلم «محمد» تمارين الرمي على الهدف المستور، وهو وضع ساتر من الرمال خلف الهدف لإظهار مكان سقوط الطلقات بغرض تدريب الرامي على الملاحظة ومراقبة الطلقات، وإكسابه مهارة إعطاء التصحيح اللازم.

ثم انتقل «محمد» في تدريبه إلى التمارين التكتيكية، وهي عبارة عن ستة أهداف توضع على مسافات مختلفة في أماكن مشابهة لأرض المعركة، وتُنفذ الرماية عليها دون التقيد بتحكيم بمدى الارتفاع، ولكن بتغيير نقطة التصويب طبقًا لمسافة الهدف ليتفق ذلك مع

طبيعة المعركة، حيث يراعى إجراء هذه التمارين مع الأوضاع في حال الرقود والارتكاز والوقوف.

كانت تلك التمارين سواء البدنية أو بالأسلحة قُدِمَت على مدى شهرين متتالين.

ففي نهاية التدريب أخبر «ماهر» الجميع أن هناك تدريبات لا تصلح إلا في ميدان حقيقي كأفغانستان ومنها التدريب على حرب الشوارع.

اكتسب «محمد» من تلك المرحلة الكثير، وتاقت نفسه إلى الاستزادة ونيل شرف المشاركة في ميادين القتال فعرض ذلك على «زهيد» وأن يُسهل له ذلك الأمر، لكن «زهيد» طلب منه الانتظار وأن الأهم لديه أن تعلم «محمد» على هذا النوع من التدريب.

طلب «زهيد» من «محمد» التركيز الآن على تجنيد فريق جديد من الشباب لانضمامهم إلى صفوف الدعوة الإصلاحية الجديدة، وهذا ما استأذن به «محمد» من «زهيد» في وقت سابق

التنظير والتجنيد

قام «محمد» بسؤال «عُروَة» عن بعض الشباب الذين كانوا ضمن فريق إشراف «عمَّار» المنطوين إلى المكتبات حينها وخاصة الثقات منهم والمتحمسين.

استدلّ «محمد» من «عُروَة» على بعض الأسماء، وقام بمقابلتهم وإقناعهم بالانضمام إلى فريقه الذي شكَّله بمباركة «زهيد» حيث كان الإقناع بطريقة استمالة العواطف الدينية ونهج استكمال طلب العلم والدعوة وكسر حاجز الحرب الضروس من الدولة للفكر الصحوي.

بعد محاولات تمت بمساعدة «عُروَة» انظم إلى فريق «محمد» 6 من الشباب المتعطش وهم:

راضي

جمعان

سويلم

خالد

مقداد

ساري

من هنا أخذ «محمد» دور القيادي حيث ربط أولئك الشباب بدروس «زهيد» في الحديث ومصطلحه وأيضًا فقه الواقع.

كانت اجتماعات «محمد» بفريقه تشوبها السرية أيضًا، فلم يجد «محمد» صعوبة في تأسيس الشباب فهم بالأصل مؤسّسُون منذ اجتماعات مكتبات المركز الصيفي.

انتهج «محمد» منهج التشدد الفكري المتطرف في الاعتقاد القولي منه والفعلي.

تزوّدَ «محمد» من «زهيد» الكثير من المخططات التي تُحاك لإبعاد الصحويين عن الساحة وذلك عبر تصفيتهم عن طريق المطاردة و الاعتقال، حيث يقوم «محمد» بدوره بإطلاع شباب فريقه على تلك المخططات وربطها بالواقع، ويتدارس معهم الطرق المثلى لمجابهة تلك النوايا وإظهار الشُبَه حول حقيقتها، ويزودهم بأسماء المعتقلين وطرق الاعتقال وأسبابها ويصوّر في أذهانهم قساوة رجال المباحث وإهانتهم لطلاب العلم والدعاة، كما يقنعهم بحقيقة التسريبات لأنواع التعذيب والنكال داخل المعتقلات السعودية.

وكان يسرد لهم تاريخ الغزوات والفتوحات الإسلامية في اليرموك والقادسية ويستعرض معهم سيّر أبرز قادتها كـ«خالد بن الوليد» و «سعد بن أبي وقاص».

كان «محمد» يحاول بالتدّرج جرّهم إلى فكرة وجوب تطهير أرض الحرمين من براثن الطغاة، وذلك عبر إرضاخهم للمطالب أو

تهديدهم بالمساس عن طريق مصالحهم الخارجية، إلى أن وصل بإقناعهم بتكفير الدولة السعودية بالمجمل.

كان «محمد» يُطلعهم على المنشورات التي تحمل نهج تكفير الحُكّام والعلماء مثل منشورات «محمد المسعري» ورسائل «أسامة بن لادن» ومن جماعات إسلامية مثل «الأنصار الجزائرية»،ومنشورات «أبو محمد المقدسي»، وجماعات إسلامية في «مصر» كانت تتكلم عن الوضع داخل السعودية التي تتحدث عن عدم تحكيم «آل سعود» لشرع الله واتّباعهم للقوانين الوضعية، ودخول السعودية في هيئة الأمم المتحدة، ووصل الأمر إلى تكفير أبرز العلماء أمثال «ابن باز» و«العثيمين» كونهم يداهنون الدولة ويُوصفون بعلماء السلطان.

شيئاَ فشيئاَ استطاع «محمد» ربط فريقه بـ«جواد» و«ماهر» ومن هنا اعتبر أن مهمته التي وعد بها «زهيد» قد تمت بنجاح.

في تلك المرحلة توالت التفجيرات لمقار حساسة في «السعودية»، فلم يكن «محمد» على صلة بالمنفذين ولا أولئك المخططين، ولكن منظومة المنظرين أمثال «زهيد» تنتشر وعلى رأسهم «سليمان العلوان» الذي التفَّ حوله شباب الصحوة بعد اعتقال دعاتها، فقد كان التنظير متفرّعا في عدة مناطق إلى أن التقت التنظيمات الداخلية مع بعضها لاحقًا وأصبحت جبهة واحدة.

فريق المناصحة العائلي

حاول والد محمد إقناع «محمد» من جديد بالتراجع والعودة لكنَّ «محمد» مُصر على البقاء.

لم يطمئن والد محمد من بقاء ابنه في «الزلفي» وخشي عليه مما لا تحمد عقباه، واضطر إلى إدخال طرف ثالث للمناصحة وترك «الزلفي» والالتحاق بالعائلة.

تحدث والد محمد إلى أبناء إخوته والذين هم أبناء عمومة «محمد» لكي يكونوا ذاك الطرف الثالث.

في ذلك الوقت بدأ دخول الهواتف النقالة وكان محمد يستخدم أحدها فاتصل أبناء عمومته به وأخبروه بزيارتهم له.

استقبلهم «محمد» في المطل فوق سفوح النفود حتى لا يستدل أحد على منزله الشعبي.

حاول أبناء عمومته إقناعه لكنه رفض في أول الأمر، ومن ثم أقنعوه إن لم يطمئن ويرتاح عند عائلته فيبقى الأمر له بعدها، ووعدهم بذلك.

فكر «محمد» بأن ينتقل مؤقتًا إلى «المجمعة» وذلك لحاجة في

نفسه، ولكن بعد أن يُقنع «زهيد» بقبول فكرة سفره إلى «أفغانستان» والاستزادة من فنون القتال وأن يُسهّل له الأَمر.

حاول «زهيد» أن يُبطئ بفكرة سفر «محمد» إلى حين الوقت المناسب وأنه بحاجته الآن في الداخل لظروف قادمة إلا أن «محمد» أصرَّ على السفر ووافق «زهيد» على مضض ولكن طلب من«محمد» أن يكون على استعداد للرجوع إلى أرض الحرمين في أي وقت يُطلِبَ منه ذلك، فقد يكون له شأن عظيم على الساحة الداخلية.

استخراج جواز السفر

أخبر «محمد» والدته بأنه مدعو من قبل جهة خيرية في دولة «الإمارات العربية المتحدة» لإلقاء بعض المحاضرات هناك وسوف يغيب لثلاثة أيام.

«ضاق صدر» والدته فلم تكن معتادة على سفر «محمد» خارج السعودية باستمرار ولم يكن ذلك ديدنه وأخبرها أنه لن يكون بمفرده وهناك بعض الأصدقاء برفقته، ووعدها بأن يتحدث إليها عبر الهاتف بشكل يومي.

والدة محمد: بتقول لأبوك؟

محمد: لا مو لازم يدري.

والدة محمد: إلا يا وليدي عشان ما يسويلنا سالفة.

محمد: لو بقوله بيسوي سوالف، لكن عادي قولوا له رايح للرياض وإلا كاشت لين أرجع.

والدة محمد: اللّٰه يهديك.

رأفَ «محمد» بحال والدته فلو تعلم بماذا ينوي ابنها لتوقف قلبها.

غادر «محمد» إلى الرياض متوجهًا إلى مبنى الجوازت لكي يستخرج جواز السفر وكان خائفًا من مفاجآت قد تحدث هناك كالمنع من السفر أو الاعتقال.

حاول أن لا يكترث وأقنع نفسه بأن آخر الاحتمالات إخباره بالمنع فقط.

ملأ الاستبيان الخاص بالتقديم على جواز سفر جديد وأصبحت كل الأوراق المطلوبة جاهزة ومن ثم قدمها إلى موظف الاستقبال.

كان «محمد» متوترًا وعيناه ترمق مكتب الضابط الذي سيقوم بالتوقيع وتمرير المعاملة.

بعد ساعة من الانتظار والتوتر وقَّع الضابط بالموافقة على الأوراق وَشُعرَ «محمد» بالأمان وأخذ تلك الأوراق إلى موظف استخراج الجوازات الجديدة وطلب منه الموظف أن يعود يوم غد لاستلام جوازه الجديد فرد عليه «محمد» بأنه قادم من خارج الرياض ولن يستطيع البقاء ليوم غد، وكذلك لا يستطيع الذهاب لمدينته والعودة مرة أخرى فطلب منه الموظف أخذ الموافقة من الضابط.

دخل «محمد» إلى مكتب الضابط وأخبره بالظرف ووافق ثم شرح على أوراقه وعاد بها إلى الموظف والذي طلب من «محمد» العودة في نهاية الدوام لاستلام الجواز.

عند الساعة الواحدة والنصف من بعد الظهر ذاك اليوم حضر «محمد» إلى الجوازات واستلم الجواز الجديد.

الحجز والوداع

عاد «محمد إلى «الزلفي» واتجه إلى مسجد «زهيد» وصلى معه العشاء ثم انتقلا إلى المنزل.

زهيد: الآن سيأتي شخص اسمه «درويش» هو من سيساعدك في أوراق السفر ويخبرك بتفاصيل رحلتك.

محمد: بمعنى سأُسافر خلال يومين؟

زهيد: إن شاء الله.

بعد نصف ساعة حضر «درويش»

سأل «درويش» عن استعداد «محمد» للسفر وعن عزمه على الذهاب بدون تردد أو إفشال للخطة، وبطبيعة الحال أظهر «محمد» العزم والإصرار على الذهاب.

طلب «درويش» من «محمد» جواز سفره وأخبره بتحمل «مجاهدي الجزيرة العربية» تكاليف الرحلة والتي قد تصل إلى 15 ألف ريال، وستكون الخطة بالانطلاق من «الرياض» إلى مطار «دبي» ومن ثم الانتقال إلى «رأس الخيمة» والاتصال بالأخ «مؤمن» والذي يعمل معلمًا في المعهد العلمي التابع لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

هناك والذي بدوره سَيُكمِّل خطة الحجز من «دبي» إلى باكستان، وهناك سيزود «مؤمن» «محمد» برقم أحد الأشخاص في «إسلام أباد» لكي يتم تهريبه إلى «أفغانستان» عن طريق «بيشاور» وهي المنطقة القريبة من الحدود « الباكستانية الأفغانية ».

لاحقًا اكتشف «محمد» أن خطة السفر لن تكون من «دبي» إلى «باكستان» مباشرة، بل من «دبي» إلى «البحرين» ومنها إلى «الهند» ومن ثم إلى «باكستان» وذلك لتشتيت الانتباه والحيطة والحذر وأيضًا نوع من المراوغة الملتوية.

حدَّد «درويش» وقتًا في اليوم التالي ليُحضر الجواز وتذكرة السفر واللقاء في منزل «زهيد».

بعد ذهاب «درويش» أكدَّ «زهيد» على «محمد» بالثبات وترك التفكير في الأمر وطرد أوهام الشيطان وأن لا يهتم إلا بصلاة الليل والدعاء إلى الله بالتوفيق والإعانة.

انتظار اليوم التالي كان يشوبه التوتر والقلق، وفي تلك الليلة استعان «محمد» بأشرطة شيخ المجاهدين في أفغانستان «عبدالله عزام» ومنها «حكم الجهاد في سبيل الله» والذي يرى فيه أن الجهاد «فرض عين» و لا يسقط إلا بالموت.

وكذلك شريطه «التحريف العالمي ضد العرب» والذي تحدث فيه عن غطرسة النصارى الغربيين وتآمرهم على العرب، وتطرَّق في سرد القصص حول أحوال الشهادة والترغيب في الجهاد.

في اليوم التالي وبعد صلاة المغرب أحضر «درويش» الجواز والتذكرة وأخبر «محمد» بأن الرحلة ستكون مساء غدٍ الأربعاء، وأن «مؤمن» يعلم بمقدمه وأوصاه بعدم الارتباك وأن ألا يفشي هذا الأمر لأي شخص كان، حتى لا تكون العواقب وخيمة والتي قد لا تُحمد عقباها، وأكدَّ عليه بعدم حمل الأمتعة والاكتفاء بحقيبة صغيرة جدًا.

محمد: وماذا عن العودة من أفغانستان؟

درويش: هذا الأمر ترتبه مع الإخوان هناك.

زهيد: لا تستعجل في الأمر فالتدريب قد يستغرق وقتا طويلاً.

ودع «درويش» «محمد» ثم خرج وبقي «محمد» عند زهيد» يذكّره بفضل الجهاد وتعلمه وأن ألا يخاف من شيء غير الله سبحانه، وإن التقى بالشيخ «أسامة بن لادن» يُبلغه السلام وأن يستقي منه القوة والعزم والإرادة.

زهيد: فإن أراد الله لنا اللقاء في الدنيا سنلتقي وإلا في جنان الخلد اللقاء.

محمد: إن شاء الله لكن في أي وقت شَعُرتَ بحاجة لوجودي في بلاد الحرمين فأرسل في طلبي.

زهيد: إن شاء الله وأنصحك أن لا تودع أحدا وداع مفارق حتى لا تشعر بالتقاعس والركون وأن لا تلفت الانتباه إليك، وخاصة مع أهلك وأكرر عليك بأني لم أُرسلك إلى هناك إلا لغرض التدريب وأن أصنع منك رجل مرحلة قادمة، وأنصحك أن لا تختلط كثيرًا بالصفويين

هناك، وأن لا تتعاطى كثيرًا مع مختلف أصحاب المذاهب الأخرى، وكُن حذرًا في تصرفاتك وعلاقاتك واجعل الجميع أعداء لك إلى أن تصل إلى إخوانك المجاهدين العرب وخاصة من بلد الحرمين.

خرج «محمد» من منزل «زهيد» وقرر الذهاب إلى «المجمعة» لكي ينام ليلته تلك عند أهله وبمقربة من والدته التي سيودعها الوداع الأخير.

بعد خروجه من منزل «زهيد» أجهش بالبكاء فحرقة الوداع قاسية.

تذكَّر أهله وعلى رأسهم والدته المسكينة ووالده الذي سينفطر قلبه عليه.

قبل أن يسافر إلى «المجمعة» ذهب ليلقي نظرته على أطلال منزلهم القديم الذي عاش فيه طفولته وذكرياته مع جدته، وبراءة طفولته مع إخوته، اتجه إلى المسجد الذي كان يذهب إليه كل فرض وخاصة الفجر مع والده وإلى منزل صديقه أيوب عندما دخل إليه وسمع لأول مرة كلمة «حرام».

ورغم سواد الليل إلا أنه أصر على الذهاب إلى مزرعة والده القديمة وتأمل أيام اللعب بالدراجة وذكريات «راجندار» وأيام الصداقة بينهما.

أصبح «محمد» ينظر إلى التراب والناس والأماكن، وإلى كل شي في طريقه لأنه يعتقد أنها النظرة الأخيرة.

قبل السفر أصرَّ إلا أن يودع «خليل» صديقه الذي يُكِنُّ له الفضل في ما وصل إليه الآن.

طرق باب المنزل وخرج «رامي» الأخ الأصغر لـ«خليل» وسأله عن أخيه وطلب منه الانتظار قليلاً كونه في المستشفى مع والده المريض.

انتظره نصف ساعة وخلالها تأمل في المنزل وتذكر أول لقاء جمعه به.

خليل: هلا والله بمحمد زمان عنك.

محمد: الشكوى لله ها الدنيا وبلاويها.

خليل: أخبارك وأخبار أبوك والوالدة.

محمد: كلهم بخير.. أنا مسافر لـ«لمجمعة» وبترك «الزلفي».

خليل: أفا ليش؟

محمد: ماعاد لي أحد هنا وبكون عند أهلي.

خليل: الله يوفقك يارب ولا تنسانا عاد.

محمد : مستحيل أنساك فلك عظيم الفضل بعد الله في كل شيء.

خليل: مابيننا شي أنا وياك أشد من إخوان.

محمد: أنا أشهد بذلك و سلامي على كل الشباب وأطلب منك أن تحللني.

خليل: ما حصل منك إلا كل خير والله يحللك ويبيحك.

ذرفت عينا «محمد» بالدموع وغادر «الزلفي» متوجهًا إلى «المجمعة».

تذكرَّ «محمد» اللحظات التي كان يقضيها على هذا الطريق في طفولته مع «راجندار» عندما يذهب مع عائلته، وتأثر بسبب قسوته على شقيقاته عندما كان يسافر بهن.

دخل إلى «المجمعة» وتوجه إلى مزرعة أقاربه ليلقي نظرة على أطلال الطفولة والبراءة مع أبناء عمومته، ومن ثم توجه إلى بيوت أقاربه ومرَّ عليهن سريعا، وكأنه يودع أصحابها وقاطنيها.

دخل منزل عائلته وتأمل كل زاوية فيه محاولاً أن لا يُظهر القلق أو الحزن على وجهه وأن لا يُشعر والدته بشيء.

جلس معها تلك الليلة حتى ساعة متأخرة من الليل وبصحبة أشقاؤه وشقيقاته.

كان يجلس بالقرب من والدته مرتميًا في أحضانها ويقبلها.

والدة محمد: كأنك متضايق.

محمد: حلليني يمه كنت مُقصِّر معك ومع إخواني.

مع تلك الكلمات كان «محمد» يحبس عبراته التي خنقها وصوته الذي ضاع مع حشرجة صدره.

والدة محمد: ياوليدي أنت في حل وظل والله يهديك ويخليك لي ولإخوانك.

محمد: آمييييين ويخليك تاج على روسنا.

مرَّ في مخيلة «محمد» شريط اللحظات الحميمية، وتذكَّر فَرَحَهُم وتَرَحَهُم وكل شيء.. كل شيء.

محمد: بكره موعد رحلتي إلى الإمارات.

والدة محمد: الله يوفقك ياوليدي وترفَّق على نفسك.

محمد: إن شاء الله، إن الله أحياني ماراح أطول أخلص من الشغل إللي رايح عشانه وأرجع بأسرع وقت.

وبينه وبين نفسه يقول «لو تعلمين أين سأذهب لشددْتِ قبضةَ يديْكِ عليَّ حالفةً أن لا أذهب».

لم يكن والد محمد متواجدا في المنزل ولا في المدينة فقد كان مرتبطًا مع أصدقائه في رحلة برية، واستغل محمد ذلك لكي لا يتواجه مع والده ويدخل معه في بعض الإشكاليات حول بقائه في «الزلفي» أو أن يحدث ما يعيق الرحلة.

استيقظ «محمد» مبكراَ وجلس مع والدته وشربا سويًا القهوة وتناولا الإفطار وتبادلا بعض الأحاديث الجانبية.

حانت ساعة الصفر ووقت المغادرة إلى الرياض، ووّدَع «محمد» والدته وداع مفارق ودموعهما تنهمر، فقلبُ «محمد» خُلِقً رقيقًا عاطفيًا كما قلب والدته.

أخذ حقيبته الصغيرة وركب سيارته وشقَّ طريقه إلى الرياض متوجهًا إلى منزل شقيقته «هدى».

عند وصوله طرق باب شقَة نسيبه الجديد وفتحت له «هدى» الباب وسلَّم عليها بحرارة، فزوجها كان في عمله وأخبرها أنه مسافر إلى «الإمارات» لمهمة دعوية ولن يطيل الغياب.

بعد صلاة الظهر قدم «مُلحم» من عمله واستبشر بزيارة «محمد» وتوقع أنه ترك «الزلفي»، لكن خاب أمله بذلك.

حاول إقناع «محمد» بترك «الزلفي» والرجوع إلى أهله، أو على الأقل البقاء في الرياض للبحث عن عمل أو العودة إلى الدراسة، حاول «محمد» أن يُسايرَه في الحديث وأخبره بمغادرته إلى الإمارات.

في مساء ذلك اليوم ودّع «محمد» أخته وزوجها واتجه إلى المطار بسيارة الأجرة، وهو ينظر إلى ملامح وطنه الذي يراه جريحًا ويقول في داخله «سأعود إليكِ منقذًا».

في المطار بدا على محمد القلق والتوجس من مسألة كشف أمره أو على الأقل منعه من السفر رغم أن استخراج جواز سفره دليل على سلامة الأمر، لكن الخوف أصبح شيئًا ملازمًا في مثل تلك المواقف.

سلَّم «محمد» جوازه لموظف الجوازات وفتح الجواز وحدَّق في ملامح وجه «محمد» الذي يحاول أن يُظهر الهدوء والسكينة على ملامحه رغم أن قلبه يدق بسرعة عالية.

ختم الموظف الجواز وهدأ «محمد» وأخذ جوازه وتقدم إلى الصالة وهو يتنفس هواءً عميقًا.

حان موعد الرحلة وركب الطيارة وخلال التحليق بدأ «محمد» يعيد ترتيب أوراقه ويستلهم الوصايا التي أخذها من «زهيد» و«درويش».

هبطت الطائرة في مطار «دبي» وأنهى «محمد» إجراءات الدخول، وعند بوابة المطار قام بالاتصال بهاتف منزل «عائلته» وطمأن والدته بسلامة الوصول.

استقل سيارة أجرة وطلب منه الذهاب إلى إمارة «رأس الخيمة» وتذكر أن لا يتصل بـ«مؤمن» إلا عند وصوله ونزوله من السيارة.

في الطريق تبادل «محمد» وسائق الأجرة «سوداني الجنسية» عن السعودية وتشوَّق سائق الأجرة إلى العمل فيها حيث القرب من بيت الله الحرام ومسجد نبيه صلى الله عليه وسلم، وتحدث عن تطبيق تعاليم الدين الإسلامي فيها، و «محمد» يضحك في داخله ويقول «كيف أن هذا الرجل مُغَرر في بلاد الحرمين فلو يعلم ما أعلمه لما قال ذلك.

عند أول مسجد في إمارة «رأس الخيمة» نزل «محمد» واتصل بـ«مؤمن».

محمد: السلام عليكم.

مؤمن: عليكم السلام.

مؤمن: من معي؟

محمد: معك «محمد» من طرف «درويش».

مؤمن: أنت وصلت ؟

محمد: إي نعم أنا في رأس الخيمة عند أول مسجد بعد المدخل الرئيسي.

مؤمن: خلاص دقايق وأنا جاي سيارتي جيب لونه أبيض.

بعد 10 دقائق حضر «مؤمن» إلى الموقع وأقلَّ «محمد» وتوجها إلى المنزل.

مؤمن: كيف حال الإخوان هناك.

محمد: الحمد لله يسلمون عليك.

مؤمن: عليك وعليهم السلام كيف الدعوة هناك وطلاب العلم؟

محمد: والله الوضع مايطمن والتيارات تتضارب في بعضها وهيئة كبار العلماء للأسف تقف مع الحكومة والاعتقالات والتضييق على أوَجِه.

مؤمن: الله المستعان لكن ليش قررت تسافر؟

محمد: البقاء هناك يشعرك بالقلق والتقاعس وقررت أن أتزود بما قد ينفعني فإما أن أعود مجددًا مع أقراني أو أبقى وقد أديت الأمانة.

مؤمن: جزاك الله خيرًا، أنا خلال يومين سأنجز لك تذكرة السفر وأحتاج فقط إلى جوازك.

في منزل «مؤمن» لم يكن «محمد» يخرج إلى أي مكان فقد أكدَّ عليه «مؤمن» بأن لا يخرج إلا لأداء صلاة الجماعة في مسجد الحي.

أخذ «محمد» بالنصيحة وقضى «محمد» ليلته الأولى مستوحشًا، فلأول مرة يشعر بالغُربة، واستغرب من هذا الإحساس وخشي أن يداهمه ذلك في باكستان وأفغانستان.

حاول «محمد» نسيان الأمر لكنه لم يستطع، فقرر الاتصال بوالدته لكي يشعر بالراحة، خلال المكالمة دخل «مؤمن» ونهر «محمد» بشدة وطلب منه أن لا يتكلم بذلك الهاتف مجددًا وهدده بسحبه منه، وأكدّ له بأن الوضع حساس جدًا كما طلب منه التخلص من الهاتف الخلوي قبل سفره إلى «باكستان».

لم يحاول «مؤمن» الاحتكاك بـ«محمد» ولا حتى الحديث معه بشكل مطوَّل ولا حتى الجلوس عنده، وكان ينهج الغموض أمامه وأن لا يتجرَّد عن شخصيته حتى لا تُعرف ماهيّته، فهذا نوع من الحماية الشخصية فهو لا يعرف «محمد» ولا يثق به ولا حتى بمن جاء من طرفه وهذا هو ديدن تلك الجماعات.

في اليوم الأول طلب «مؤمن» من «محمد» الذهاب لصلاة الظهر وأن يعود مباشرة إلى المنزل لأنه متَجه إلى إنهاء إجراءات سفره.

بعد صلاة الظهر أراد «محمد» أن يتجوَّل قليلاً في الحي ولكي يُزيل عن نفسه الوحشة اتجه إلى «السوبر ماركت» وتجول في داخله وعند باب الخروج رأى مُعلّمه في المعهد العلمي في «الزلفي»«حمدان» وظهرت البشاشة على محيا «محمد» وكأنه غارق في بحر متلاطم الأمواج وشاهد خشبة وتعلّق بها، نسي «محمد» حينها أنه مُطالب بعدم محادثة أيَّ أحد ولكن الموقف أفقده السيطرة.

حمدان: وش جابك هنا؟

محمد: أبد جاي زيارة.

حمدان: يقرب لك أحد؟

محمد: لا بس فيه واحد من الشباب.

حمدان: من ؟ كل اللي هنا نعرفهم.

انعقد لسان «محمد» فلم يستطع أن يتصرف أو أن ينطق بأي اسم وتلعثم وكأن الحروف ستخونه من غير تدبير.

حمدان: وش بلاك ؟ منتب على بعضك؟ في بطنك علم أنت متوهق بشي؟

محمد: لا والله.

حمدان: أنا ساكن في هذا الحي وفي صلاة الفجر لمحتك مع «مؤمن» بس كذّبتُ عيوني، لكن إيش بينك بينه؟

محمد: ليه وش فيه «مؤمن»؟

حمدان: محمد اعتبرني في مقام والدك.

محمد: وأنا ما أعتبرك إلا كذلك.

حاول «حمدان» أن يُقِّلَّ «محمد» إلى منزله فلم يتم ذلك إلا بعد إصرار وإلحاح، إلا أن «محمد» حاول الخلاص من أستاذه خوفًا من علم «مؤمن» بهذا اللقاء، وبعد محاولات عقد «حمدان» مع «محمد» هدنة تقضي إن لم يقتنع بكلامه فله ترك منزله والعودة إلى منزل «مؤمن».

كل ما يعلمه «محمد» في تلك اللحظة أن أستاذه ينوي ثنيه من البقاء مع «مؤمن» وقرّر مجاملة أستاذه، ومن ثم سيعود في أسرع وقت

إلى منزل «مؤمن» فقد شعر بقرب الخطر وعليه أن يسافر عاجلاً قبل حدوث أيّ مانع.

حمدان: أنا ما أعرف اللي بينك وبين «مؤمن» لكن إللي أعرفه أن توجه مؤمن غير سوي وعنده أيديولوجية متلونة، ودائمًا أشوف معه شباب من «السعودية» يجلسون معه كم يوم ويختفون، بيني وبينك أنا غير مرتاح له، لكني غاض الطرف عنه ومالي في وجع الرأس، لكن يوم شفتك اختلف الوضع عندي.

محمد: ليش اختلف؟

حمدان: أنت تعز علي ومن طلابي وكنك واحد من عيالي ما أرضى عليك بالزلة ولا بالغلط.

محمد: وين الغلط؟

حمدان: الغلط إن الإنسان يعادي وطنه وولي أمره ويغلّط علماء المسلمين ويشوف نفسه هو الصح وغيره على ضلال مُبين، كم عمرك يا محمد؟ و ما هي تجربتك حتى تكون أفقه وأعلم من مشايخ شابت رؤوسهم ولحاهم في العلم والاطلاع والمنهج القويم؟

محمد: وإيش علاقتي بها الأمر؟

حمدان: لا نخبي على بعض وأنا مو نايم على أذاني أنا أكبر منك بكثير وأعرف توجهات «مؤمن» وأعرف علاقته القوية بالصحويين والتكفيريين وأنا شاك في وجوده هنا وأعلم أن منهجه هو التكفير لولاة الأمر، يقول الله سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا

اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً). والرسول صلى الله عليه وسلم قال : (من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية). وأنا أعلم أنك لم تَطّلِع على حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه عندما قال: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله ، وقال : إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان.

محمد: ما هو الكفر البواح؟

حمدان: أن يدعو إلى نبذ الشريعة أو أن يدعو إلى ترك الصلاة وما أشبه ذلك من الكفر الواضح الذي لا يحتمل التأويل فأما ما يحتمل التأويل فإنه لا يجوز الخروج عليه حتى وإن كنا نرى أنه كُفر وبعض الناس يرى أنه ليس بكفر فإنه لا يجوز لنا الخروج عليه لأن هذا ليس بواحًا أنا أنقل لك كلام الشيخ ابن عثيمين ولا تقل لي إنك لم تكفره أو تفسّقه؟

محمد: مداهنين للحاكم.

حمدان: هذه ليست مداهنة فأنقل لك كلام الشيخ بن عثيمين عندما سئُل بأن هناك علماء سلطان يوافقون الحاكم بما يشاء فقال: ما أضرَّ الأمة من أول ما أضرها في عهد الخلفاء الراشدين إلا التأويل الفاسد والخروج على الإمام، فالخوارج لماذا خرجوا على علي بن أبي

طالب رضي الله عنه فقد قالوا بتحكيمه لغير القرآن فقد كانوا في أول الأمر معه على جيش معاوية ولما رضي بالصلح والتحاكم إلى القرآن قالوا له أنت الآن حكّمت آراء الرجال ورضيت بالصلح فأنت كافر فسوف نقاتلك، فانقلبوا عليه بالتأويل.

فيا محمد ليس كل ما يراه الإنسان يكون هو الحق، وإن حاولوا مسايرة الحاكم فهو لأجل المصلحة التي تستدعي دفع الضرر بأقل التكاليف، صحيح أننا قد نختلف معهم بعض الآراء لكن لا نُظهر لهم العداء ولا لغيرهم من المسلمين فواجبنا النصيحة لا الخروج.

محمد: طيب التضييق على العلماء وسجنهم بماذا تسميه؟

حمدان: لابد أن تعلم شيئًا مهمًا أن أولئك العلماء الذين تتحدث عنهم ما هم إلا أتباع تيار مؤدلج نتج عنه تزاوج السلفية بالقطبية ففيه الكثير من المآخذ الشرعية فهل تعلم أنهم فرع من الأصل وهو جماعة الإخوان المسلمين الذين يختلفون في توجهاتهم في كثير من مسائل وعقيدة أهل السنة والجماعة، فكل أنشطتهم ماهي إلا امتطاء الدين لأجل أغراض سياسية، فيحِلُّون حتى قتل المسلم المؤمن لأجل مصالحهم، فقد قال الله تعالى: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا).

المسألة خطيرة يا محمد ألم تقرأ وتشاهد ما حدث في الجزائر على يد ما يسمَّون بالمجاهدين حينما دخل على الساحة جماعات مختلفة ومتنوعة وعاثوا في الأرض فسادا وقتلوا الكل بلا هوادة ولا

تفريق وأقاموا مجازر جماعية فدبَّ الرعب والخوف في البلاد،أهذا طريق للإصلاح؟ ففي وصية الرسول صلى الله عليه وسلم لقادة الجيش في كافة الغزوات: (انطلقوا باسم الله وعلى بركة رسوله لا تقتلوا شيخًا ولا طفلاً ولا صغيرًا ولا امرأة ولا تغلوا «أي لا تخونوا»، وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين). وأبو بكر الصديق رضي الله عنه أول خليفة للمسلمين يوصي أمير أول بعثة حربية في عهده وهو أسامة بن زيد فيقول: (لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة ولا تقطعوا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة وسوف تمرون على قوم فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له(. وهؤلاء قتلوا بني جلدتهم وهم مسلمون يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويقيمون الصلاة، إن اعتقال أولئك هو لأجل دفع البلاء والضرر الأعظم في الأمة ودفع انشقاقها وكسر شوكتها وتكالب الأعداء عليها، هل تعتقد يا محمد أن التفجيرات التي حدثت هي من صفات المؤمنين الذين يقرؤون ليل نهار قوله تعالى: (وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ) فما هو الحق الذي يحلله لأولئك بقتل المعاهدين والمستأمنين، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: (مَن قتل نفسًا معاهدًا لم يرح رائحة الجنة وإنَّ ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا). قال الإمام ابن عبدالبر رحمه الله: (فالصبر على

طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه لأنّ في منازعته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف وإراقة الدماء وانطلاق أيدي الدهماء وتبييت الغارات على المسلمين والفساد في الأرض).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ولعله لا يكاد يعرف طائفة خرجت على ذي سلطان إلا وكان في خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الذي أزالت).

بل يجب الصبر والسمع والطاعة في المعروف ومناصحة ولاة الأمور، والدعوة لهم بالخير، والاجتهاد في تخفيف الشر وتقليله وتكثير الخير، هذا هو الطريق السوي الذي يجب أن يُسلك،لأن في ذلك مصالح للمسلمين عامة ولأن في ذلك تقليل الشر وتكثير الخير، ولأن في ذلك حفظ الأمن وسلامة المسلمين من شر أكثر.

لم يكن يعلم «محمد» عن طبيعة حديث «الجامية» ولا عن أسلوبهم وطريقة تعاملهم وتعاطيهم مع مثل تلك القضايا، فجهله بهم جعله يقع فريسة لأستاذه وعدم تحصينه الصحيح بفهم أيديولوجيتهم الحقة، ولكنه كان من المناهضين لهم فقط وينقل ما يسمع.

أيقن «حمدان» أن مجيء «محمد» إلى الإمارات ما هو إلا نقطة عبور إلى وجهة أخرى وقد أصاب توقعه.

بعد ثلاثة أيام من الحوار الفكري شعر «محمد» وكأنه تلقى صفعة على وجهه، وأيقن أنه كان يسمع إلى طرف واحد وكأن تلك الأحاديث والأقوال يسمعها لأول مرة.

لم يتمالك «محمد» نفسه وبكى بكاء شديدًا، ولأنه شديد العاطفة والتأثر أخبر أستاذه بكل شي منذ أن بدأ مع المركز وإلى وقت لقائه به.

ذكّر «حمدان» «محمد» بأهله وبره بوالديه فذلك هو الجهاد، وذكر له بالرجل الذي جاء يستأذن الرسول صلى الله عليه وسلم في الجهاد ، فقال له: (أحيّ والداك؟ قال نعم فقال: ففيهما فجاهد).

وسأل «محمد» عن ماهيّة علاقته بوالديه وأهله، فأخبره بأنها ضعيفة، وأكد له «حمدان» بأن الصحويين وخاصة المتطرفين منهم يحاولون إبعاد الأتباع عن الاختلاط بأهلهم وذويهم، عن طريق إشغالهم بالأنشطة لأجل تجنب الضغط من قبل العائلة بترك تلك الأنشطة أو التهائهم مع مشاغل البيت ومصالحه.

ذكر «حمدان» لـ«محمد» السيناريو المحتمل في حال ذهب إلى «باكستان» أو «أفغانستان»، فإن سلم من المخابرات الباكستانية فلن يسلم من تعدد الاختلاط المتوقع بأفراد المذاهب الأخرى والمختلفة في الآراء والفتاوى، وهناك من لديه بعض البدع والشركيات، فقد يتعاطف «محمد» مع الأوضاع أو قد يصل به الحال إلى درجة ضغط الإقناع ومن ثم الاقتناع بشيء من ذلك فتضيع عقيدته ويخسر إيمانه، فمثلما أن استطاع الصحويون طمس عينيه وسدّ أذنيه وغسيل دماغه فما الذي يضمن له أن لا يتبدّل خاصة وأنه قد لا يلتحق بمراده هناك، وقد يُستَغَلّ أو يضيع بين عدة جماعات تقوم بتصفيات بعضها البعض.

تيقن «محمد» أنه مُغيّب عن الحقيقة، وما هو إلا طُعم لأهداف وأيديولوجيات وندم على تقصيره في حق عائلته وحياته العلمية والعملية، والتركيز على ما هو مهم بدلاً من الأهم.

وذكَّره «حمدان» فيما لو ذهب إلى «أفغانستان»، فما هو مصير والديه وما هي الصدمة التي ستحصل لهما وماذا سينتج عن ذلك فسيدوم الباقي من حياتهما بالألم والحسرة والندم، فهل كان سيرضى لهما بذلك وأن يعيش هو في رغد رضا النفس؟!

محمد: وش الرأي الحين؟

حمدان: ما أبغاك تقابل مؤمن ولا يعرف مكانك ولا وين اختفيت.

محمد: بس جوازي معه وأغراضي عنده.

حمدان: ما عليك كله يتعوض خلك عندي لين أضبط أمور عودتك.

قضى «محمد» تلك الأيام في منزل «حمدان» واختلف معه الأمر عن تلك الليلة التي كان يشعر بها بضيق ووحشه وغُربة عند «مؤمن». اتصل «محمد» بوالدته وطمأنها بأنه عائد قريبًا.

أحسَّ «محمد» وكأن ماءً باردا غسل قلبه وطهَّر نفسه، فتوضأ وصلى لله ركعتين وحمده شكرًا على أن ساق له مُعلّمه «حمدان».

شعر «محمد» بالفرق بين «حمدان» و «مؤمن» وطريقة تعاملهما معه، وكيف أنه توجّس من الأول واستراح للثاني.

تعمّد «حمدان» أن يشتت «مؤمن» وأن لا يعلم شيئًا عن طريق

«محمد» وقرر أن يتحدث إلى علاقاته في السفارة السعودية في الإمارات وذلك لاستخراج تصريح عبور لـ«محمد» إلى السعودية.

حمدان: هذا تصريح دخولك للسعودية.

محمد: من دون جواز؟

حمدان: ضبطت لك الموضوع.

محمد: الله يجزاك خير بس أنا خايف.

حمدان: من ماذا.

محمد: من مؤمن ومن اللي هناك.

حمدان: مؤمن ما راح يدري لأنه الآن سيحمي نفسه ويمكن ما يتخذ أي إجراء ومن المحتمل يكلم ربعه في السعودية ويخبرهم باختفائك لأجل إبراء ذمته وراح يستبعدوا عودتك في ها الفترة وقد يحتاطون لأي شي خوفًا من القبض عليك واكتشاف أمرهم.

محمد : وإذا رجعت وين أروح في رأيك؟

حمدان: مالك أحد في الرياض؟

محمد: فيه أختي وأقاربي.

حمدان: بس خلك عند أختك فترة ولا تختلط بأي أحد ولا حتى شباب «الزلفي» سواء اللي عارفين أو اللي مو عارفين عن شي، وذلك فترة من الزمن، لأن الموضوع خطير وقد يتم تصفيتك.

محمد: أخاف أحد يستدل علي وأخاف إني أمل أو أفتر.

حمدان: أنا راح أساعدك ترجع تكمل الدراسة وأضبّط أمورك.

فوات الرحلة

قام «حمدان» بالحجز لـ«محمد» عن طريق النقل الجماعي برًّا وذلك للاحتياط الأمني لئلا ينتظره أتباع «زهيد» في المطار ويقوموا بتتبعه أو تصفيته.

أوصلَ «حمدان» «محمد» إلى مكتب الرحلات، وأكدّ عليه أن يتواصل معه طوال الرحلة إلى أن يصل إلى بيت شقيقته، وأن يكون أيضًا على تواصل دائم به، حتى يساعده على الخروج من تلك المحنة.

ركب «محمد» الباص وهو مُمتنٌّ «لحمدان» كثير الامتنان، فموقفه لن ينساه مادام حيًا.

استغرقت الرحلة إلى الرياض قرابة 12 ساعة، حينها كان «محمد» يسترجع الأحداث، لكن الخوف لا زال يملأ قلبه من المجهول المنتظر، فكل السيناريوهات محتملة الحدوث.

عندما دخل الأراضي السعودية أصبح يتأمل في مسطحاتها، فقبل أيام كانت تفصل بينه وبينها أرض بعيده مجهولة، وحمد الله أنه عاد إليها حُرًّا.

عند وصوله إلى منزل شقيقته اتصل بوالدته وبشرها بسلامة الوصول وكذلك معلمه «حمدان».

بدأ «محمد» بتطبيق وصايا «حمدان» وبدأ مع العام الدراسي الجديد بالتسجيل لاستكمال الدراسة الثانوية، وبدأ باسترجاع علاقاته ببعض أبناء أقاربه الغير منتمين إلى أي تيار ديني، والذين بدورهم عرفوه على أصدقاء آخرين.

لكنه لازال يتوجس من استدلال أحد أتباع «زهيد» أو المحيطين به على مكانه، وكان يتحرى عنهم بشكل غير مباشر لأجل أن يطمئن.

كان «محمد» في تلك الفترة يقضي عُزلته بكثرة القراءة في كل شيء وفي أي كتاب ثمين تقع يده عليه سواء في الدين أو التاريخ أو حتى الفلسفة أو الأشعار.

انقطع «محمد» عن الجميع ما يقرب السنة والنصف، وتخلل تلك الفترة بعض التفجيرات الإرهابية التي كانت تستهدف بعض المنشآت، وبقي «محمد» يتابعها عن كثب ويعرف بعض تلك الأسماء التي تشارك فيها، إلا أنه قرر التزام الصمت.

وفي أحداث متسارعة حدثت الواقعة الكبرى الـ 11 من سبتمبر واختراق 4 طائرات الأجواء الأمريكية، وذلك عبر اصطدام اثنتين منها بأبراج التجارة العالمية، والثانية في مبنى وزارة الدفاع والرابعة تم إسقاطها قبل أن تتجه إلى الهدف.

ذُهل «محمد» من هول ما شاهده، وبعد ساعات تم توجيه الاتهام إلى تنظيم القاعدة فقد اشتهر صيتها بهذا الاسم في ذلك الوقت والذي يتزعمها «أسامة بن لادن»، وما أن لبث أيامًا إلا وقد تم نشرت الولايات المتحدة الأمريكية 19 اسما.

تخيّل محمد السيناريو المحتمل فيما لو ذهب إلى «أفغانستان»، فمن يدري فقد يكون هو قائد «طائرة خامسة» والتي قد تغيّر مسار العالم بأسره مثلما فعلت الطائرات الأربع.

بعد تلك الحادثة بدأت المواجهات في السعودية بين قوات الأمن ومجموعة من الإرهابيين وأعلنت السعودية عن 39 اسما تطلب استسلامهم لوزارة الداخلية.

شاهد «محمد» تلك الصور وصُعق ببعض الأسماء الواردة، فوجد اسما لشاب كان زميله في مكتبة «عمار» واسما آخر تدرب معه على يد «جواد» و«ماهر».

تخيّل لبرهة وجود صورته واسمه ليكون الرقم 40، وتخيل ما قد يقوم به من الأعمال الإجرامية وتلطيخ يده ببعض الدماء البريئة.

وأعلنت الولايات المتحدة الحرب الطويلة على الإرهاب، وبدأت بها في أفغانستان ومن ثم تحوّلت إلى العراق.

توالت التفجيرات والمواجهات والاعتقالات، إلى أن شاهد مصرع «سويلم» الذي كان تحت إمرته وندم وبكى أن كان سببًا في مصيره وهلاكه، وتوالت العمليات حتى قرأ عن اعتقال «مقداد» وهو

أيضا من المُنضمينَ إلى فريقه في تلك المرحلة، وشيئًا فشيئا أتاه نبأ سفر «راضي» إلى العراق للمشاركة في الحرب على الاحتلال الأمريكي والانغماس داخل تنظيم القاعدة هناك، فهو أول المتأثرين بتنظير «محمد».

دخل «محمد» في دوامة المسؤولية حول تعلُّق أولئك الأشخاص برقبته وبدأ شعور القلق ينتابه واتصل بأستاذه «حمدان» للبحث عن العلاج الناجع للألم النفسي.

محمد : السلام عليكم.

حمدان: عليكم السلام يا هلا والله بمحمد.

محمد: الله يحييك.

حمدان: كيف أوضاعك.

محمد: الحمد لله بخير لكن متضايق.

حمدان: أفا عسى ما شر.

محمد: بدأت أشعر بالمسؤولية عن الشباب اللي تسببت في أذاهم من شباب الصحوة.

حمدان: أسأل الله تعالى أن يتوب عليك وأن يجنبك الشرور والفتن وأن يجعل مستقبلك خيرًا من ماضيك، يا محمد إن المرء إذا عصى الله تعالى ثم تاب، تاب الله عليه، فقد قال عز وجل عن نفسه بأنه: (غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ). ولا بد من أن تثق بربك فإن وعد الله لا يُخلف،

وحق الله تعالى في جانب العفو والصفح أرجح، وما دمت قد تركت ما ذكرت وندمت عليه وعزمت على عدم العودة له فمغفرة الله لك مرجوة، وعفو الله عنك مأمول ولا شيء عليك تجاه أولئك، فهو شيء قد كتبه الله عليك وعليهم وهو من يتولاهم.

هدأ بال «محمد» وبقي فترة من الزمن يسأل الله كل يوم أن يعفو عنه وأن لا يؤاخذه بما فعل ويرجوه صفحة جديدة وأن يأخذ بيده إلى البصيرة الحقَّة.

قرر «محمد» اجتناب كل التيارات الإسلامية المتواجدة على الساحة وأن ينفرد ببصيرة وإطلاع ونهج الحيادية، والعمل على الرؤية الصحيحة وخوض غمار الانفتاح المحمود والأخذ بيد كل ضال عن طريق الحق والصواب إلى بر الأمان.

ومع هذا الهدوء الذي لفَّ «محمد» خُتِمّ تاريخ تلك المرحلة بخبر أثلج صدره وحرره من عقدته وخوفه فقد حدثت مواجهة خارج مدينة الرياض بين قوات الأمن ومجموعة من الإرهابيين قُتل فيها الكثير، واعتقل البعض، وبعد نهاية العملية أعلنت وزارة الداخلية في بيان لها أسماء أعضاء تلك الخلية.

«زهيد» وقع في سوء أعماله لتنتهي معه أيام الخوف والريبة والتوجس لدى «مجمد» وينطلق إلى العالم من جديد ويعود إلى الساحة، ولكن بفكر مختلف ومنهج واضح، فأكمل دراسته الجامعية والتحق بالخدمة الوظيفية وسار في طريق طويل مِلؤه الإنارة والإثارة في شق

الفضاء العالي ورؤية العالم بمنظار واحد وتحكيم العقل والمنطق والبعد عن العاطفة والانسياق وراء الإيديولوجيات المتصادمة والمتلاحقة.

انتهى..



- صحافي تلفزيوني سعودي «مجموعة MBC»
- من مواليد 16 يونيو أواخر السبعينات
- يعود إلى محافظة المجمعة
- كاتب ومهتم بالشؤون الإسلامية
- درس الشريعة وعلم النفس

الطائرة الخامسة

هي قصة تُعبر عن مئات الشباب الذين غُرر بهم تجاه أفكار متطرفة فهي واقع وخيال والشخصيات فيها تتراوح بين الملموس وشبه المجرد، وأعطت صَفَحَاتها إشراقة حقيقية وواقعاً حدث في نهايات القرن الماضي عن أبطال رواية غيرَوا في مسيرة البطل الرئيس لتَصفَ الفكر الذي انغمس في المجتمع السعودي آن ذاك.

أحداث بطل روايتي تشبه إلى حدٍ كبير سلسلة مراحل عِشْتُهَا ضمن جيلٍ من المتأثرين بالأفكار المتطرفة التي ضُحَت طوال العقدين منذ بداية الثمانينات وآتت أقسى ثمارها مع بدء الألفية الجديدة وتحديدًا بأحداث 11 (أيلول) سبتمبر.

محمد العُمَر


ISBN 978-9948-425-88-5

